صـوت البحـر

البرتــو مـورافيـــا

صـوت البحـر

ترجمة:

عدنان محمود محمد



البرتو مورافيا

صوت البحر

ترجمة: عدنان محمود محمد

الطبعة الأولى ١٩٩٧

دار الكنوز الادبية ـ بيروت ـ لبنان

ص .ب : ٧٢٢٦ ـ ١١ هـ ٦٥٣٥١٤

الشيء الأفظع

أنا امرأة وحيدة وجميلة مما يشكلَ وضعاً مثالياً. بكل صراحة: الوضع غير ذلك. فهذا الجمال الذي يشكل في مهنتي كمضيفة جوية ميزة مهنية مكتسبة، يغيّر طابعه ووظيفته ما إن أنزل من السماء الى الأرض.

على الطائرة، جمالي وسيلة للعمل، أقول وسيلة أستخدمها بدقة منظمة وبصرامة حسب قوانين الشركة. أما على الأرض فإن جمالي وبفضل خيمياء غامضة مرتبطة بكوني عزبة يصبح بضاعة أستطيع – إذا أردت – أن أبيعها أو لا أبيعها: وهو يبقى بضاعة في حالة أو أخرى بالنسبة إليّ أو بالنسبة إلى بقية الرجال الذين يقتربون مني.

أثناء الطيران أنا ملاك في لباسي الموحد وعلى الأرض أنا واجهة متحركة لجسم بشري وكل ما فيَّ يؤكد هذا التحول، ابتداءً من الميني جوب الضيق جداً والذي يضطرني إلى مشية متخلعة لا أحد ينتبه إليها عندما أجتاز ممر الطائرة. وعلى الأرض يعتبر هذا الميني جوب دعوة إلى علاقات جنسية. وحتى حركات يدي عندما تحرك غطاءً على ساقيْ مسافر أو وسادة تحت رقبة مسافر آخر ؛ اما على الأرض فيعطونها كل أنواع التفسيرات.

لم هذا التغيُّر؟ لماذا يكون أول عمل أقوم به هو الذهاب مباشرة إلى مرآة الحمام فأتخلص من قبعتي ومن ضفيرتي التي تأسر شعري وأفك كليا أزرار سترتي ما إن أصل إلى مسكني الضيق المجاور للمطار (أتقاسمه مع زميلة لي لا ألتقي بها أبدا وهي لا تلتقي بي)؟ لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال. وبالمقابل أعرف تمام المعرفة أني أرى مباشرة أن عينيَّ الخضراوين الواسعتين كعيني الأموات طيلة مدة فترة الطيران تصبحان الآن قاسيتين وفاترتين وأرى نهديَّ يتدفقان كما بإرادتهما الخاصة خارج الثوب وأرى فمي الذي يُغدق الإبتسامات المصطنعة أثناء الرحلة، يتخذ على الأرض وبشكل طبيعي طية حردة وثأرية وأرى شعري يعود ببطء إلى الحياة لكي ينتشر من تلقاء نفسه على كتفي العريضين. الفصل ملعوب، فقد تحول الملاك المجند إلى فتاة متحللة سهلة، عصبية لا تعرف كيف تمضي السهرة لكنها مصممة على أن لا تمضيها وحيدة.

بعد أن اغتلت عمليا ملاك الطائرة فإن الشيء الوحيد الذي قررت أن أفعله هو أن أمسك بالهاتف لأدير أرقام مجموعة من الرجال بتصميم بالتسلسل رقماً رقماً ؛ أولئك الرجال الذين يعيشون وحيدين والذين يبحثون عمن يرافقهم وقد سجلت أسماؤهم على دفير صغير. لا أكف عن الإتصال حتى اقع على أحدهم، أي على رجل مستعد لتلك السهرة.

أسألكم أن لا تحكموا عليّ بقسوة فالقوانين الصارمة جداً للشركة جعلت مني امرأة ترفض غرائزها، امرأة مكبوتة. لن يحدث شيء بيني وبين الرجل الذي سيصحبني للسهر، لا شيء حميمي، لا شيء عاطفي. فهو لن يدعوني إلا لكي يظهر بمرافقة امرأة رائعة الجمال لكي يثير إعجاب الرجال الآخرين وحسدهم. وأنا سأقبل أن أجعل من نفسي Bella figura [1] كما يقولون في إيطاليا مقابل وجوده بجانبي في المطعم أو في السينما أو في علبة من علب الليل. صحيح أني أقول: سيكون هذا

---

[1] (١) بالايطالية في النص وتعني: وجه جميل.

كل ما في الأمر ولكن لماذا تتسلل إذاً إلى جميع حركاتي هذا المساء والى كل ما أقوله فكرة بغاء ناعم وعفيف؟ إن تأويلها الجنسي غير الموجود والملغى طيلة مدة الطيران يفرض نفسه بقسوة الآن. في الواقع، إني إذ أقبل الدعوة فإني أبيع حضوري بالطريقة نفسها التي يوقع بها فلاح بقبضة يده بيع بقرة حلوب عريقة الأصل. وإذا تعلق الأمر بالبيع فإن الأحداث هنا لتؤكده.

ما إن ندخل إلى المطعم حتى يأخذ مرافقي بالنظر إلى الصالة أكثر من النظر إليّ، ينظر إلى الطاولات الأخرى ليرى "أي أثر أحدثه" عليهم. نعم، إني أعرف الرجال. لا أعتقد أنني أعرفهم. والآن وبسبب الحزن الذي أستشعره فإني مضطرة للقول بأني أبدأ معرفتهم الآن.

لذا سوف أبقى في البيت هذا المساء. قررت أن أكون ملاكاً على الأرض. بقيت عارية – الطقس حار بشكل مخيف وبما أنني أسكن في الطابق الأرضي فمن غير الممكن فتح النوافذ – جلست على مقعد لأشاهد التلفزيون. كانت الساعة تقارب الثامنة، سيبثون نشرة الأخبار المصورة ثم فيلماً قديماً من الخمسينات ثم فيلماً وثائقياً عن الحيوانات ثم النشرة من جديد. القطع مستمر من أجل بث الدعايات التي بفضلها تبدو سعادة العالم مرتبطة كل الارتباط باستعمال مستحضر استهلاكي – أود أن يفسر لي احد سبب ذلك – سوف أشاهد الأخبار المصورة ثم الفيلم وسأنتهز فرصة بث الدعايات لألتهم عشائي بسرعة (شريحة لحم من الروزبيف وحبة بندورة تركتها في البراد منذ أول أمس لحظة مغادرتي) ثم أعود أمام شاشتي الصغيرة لأشاهد الفيلم الوثائقي ثم الأخبار الثانية التي تكون عموماً مشابهة للأولى. ولكن من يعلم؟ فقد تندلع حرب أو تقع كارثة في آخر لحظة وهكذا سوف "أصمد" حتى الحادية عشرة.

مشيت على رؤوس أصابع قدمي في الظلام الموحش للشقة الخاوية من غرفة إلى أخرى لأتأكد من إغلاق درف النوافذ والصنابير والأقفال.

أويت أخيراً إلى فراشي لأنام نوماً خفيفاً ومضطرباً. سريري يتسع لشخصين، لكن أحداً لم ينم فيه معي أبداً. إني كثيرة الحركة أثناء النوم وكثيرة القلق: أنام على الحافة اليمنى للسرير وأستيقظ على حافته اليسرى. نكته!

ما إن اتخذت قراري الغريب بعدم الخروج حتى جرت الأمور بشكل اعتيادي ولكن حتى الساعة التاسعة فقط. أي حتى الساعة التي كنت أخرج فيها في الأماسي الأخرى. سأضع الهلالين ذلك لأن فعل خرج بين هلالين لا يعني بالنسبة إلي كما يعني بالنسبة لمئات النساء نفس معنى خرج بدون هلالين - فخرج بدون هلالين يعني خرج للتسوق أو للنزهة أو لزيارة الأصدقاء، أما خرج بين هلالين فيعني بعكس ذلك، الحياة. وهكذا هذا المساء، فإني ، إذ أبقى في البيت، أتخلى كلية عن الحياة، أو على الأقل، عن الجانب الوحيد الذي يبدو لي حياً من الوجود. ولكن في اللحظة نفسها التي أحسّ بنفسي أجمل من أي وقت مضى أرى للأسف أن الوحدة أحالت جمالي طيفا شاحبا. لم يبق لي إلا أن أذهب إلى المطبخ وأفتح البراد وأتأكد من خلوه التام. ليس التام، فقد أخطأت، لأني وجدت فيه علبة مفضضة في داخلها قطعة من الروزبيف حمراء وبنية مجاورة لحبة بندورة حمراء وخضراء. كان منظرا يستحيل أن أصمد أمامه. أسرعت إلى الصالون كمجنونة، جلست أرضا وركبتاي بارتفاع صدري، مسعورة كذئبة جائعة. أدرت أول رقم لمع في ذاكرتي فسمعت صوت رجل يقول "برونتو" في الطرف الآخر من الخط، أجبته بهدوء (أنا لو تشيلا، ماذا تفعل هذا المساء؟).

يجدر بي أن أقول لكم إن الرجل الذي كلّمته هو الرجل الوحيد الذي لا أشعر معه بأني مومس. لماذا؟ الأمر سهل أليس كذلك؟ فهو الرجل الوحيد الذي يحبني. لكن تخيلوا سوء حظي! إنه فقير جدا وانا لا أكلمه إلا في القليل النادر ؛ أولاً لأني لا أحبه وثانيا لأني أعرف أنه لايملك الكثير من المال لينفقه عليّ وأعترف أن الذهاب لتناول العشاء في

مقهى رصيف من الدرجة الثالثة تضحية من قبلي لا أقوم بها إلا إذا كنت أحب ويجب أن أعترف أيضا أنه، في قرارة نفسي، بيع حضوري أقوى من اشمئزازي. مثلما ينفطر قلب صاحب شجرة تطرح ثمارا يانعة عندما يرى هذه الثمار تتساقط وتتلف العشب.

طبعا، ما إن اقترحت عليه العشاء معي حتى قبل بحماس. كيف سيتصرف؟ هل سينفق جزءا كبيرا من مرتبه؟ هل سيطلب سلفة من أحد زملائه؟ في النهاية، هذا لا يهمني. وفوق ذلك سوف أمنعه بالقوة من الهروب إلى مقهى الرصيف الصغير والرائع.

لبست ثوبا جذابا جدا من موديل ١٩٠٠ الأمريكي. له أجنحة في كل أنحائه يلامس الأرض مقوَّر من الأمام حتى السرة ومن الخلف حتى الخاصرتين. وهذا الثوب يتطلب مطعماً فخماً بالتأكيد. وهذا ما يلزم تماما لكي أجعل من نفسي unabella figura بالنسبة الى الرجل الذي يخرج معي أحس بنفسي مومساً حقيقية أكثر من أي وقت مضى لأني أعرف أنه لا يملك المال اللازم لكي يرافق امرأة تلبس مثلي إلى العشاء هذا المساء.

عندما سمعت أصوات أبواق عجولة أسرعت إلى الخارج. ما إن اجتزت الباب حتى توقفت مذهولة ومرعوبة، كلوحة تمثل العذراء بين قديسين معلقة في كنيسة كنت هناك مسمّرة بين رجلين أحدهما إلى يميني و الآخر إلى يساري. الأول كان عاشقي الفقير بهيئته، هيئة الشاب المثقف (إنه يدرس فلسفة) ثيابه رثة وتسريحته سيئة وتقف خلفه سيارته البائسة التي يظن أنه يستطيع أن يخطفني فيها. وفي الناحية الأخرى يقف رجل من الأشخاص الأكثر إثارة للضحك وقد سميته القزم لأنه في الواقع يشبه أحد أقزام (الثلج الأبيض) بأنفه الأحمر الضخم ومؤخرته الضخمة والرخوة وساقيه الغليظتين والمقوستين. وإن خوفي من البقاء وحيدة في البيت دفعني إلى الاتصال به منذ الأسبوع الماضي وحددت له موعدا ليأتي اليوم.

طيراني اليومي أفقدني ذاكرتي فنسيت الموعد. خلف القزم كانت تربض سيارة كبيرة مغطاة بطبقة معدنية يجب أن أعترف أنها تتناسب تماما مع أثواب عارضات الأزياء اللواتي نرى منهن الكثير في دعايات السجائر. في زمن أقل مما يلزم لقول العبارة التالية فكرت أنه من الأفضل أخذ المال من جيب رجل غني على أن آخذه من جيب شيطان فقير أية خبيثة أنا! - بعد أن أحسست بالارتياح لهذه الفكرة قلت لعاشقي الذي مد يده مسلّماً: (اعذرني لقد اقترفت حماقة. يجب أن أذهب مع ذاك السيد لأني حددت له موعدا منذ الأسبوع الماضي عن هذا المساء.)

ذهبت للجلوس في السيارة المتوجشة بجانب قزم الثلج الأبيض الذي انحنى على المقود وقام بحركات صعبة للخروج من شارع شقتي وفي الوقت نفسه سألني من يكون ذاك الشاب فأجبته لا شعوريا " إنه رجل حياتي!"

" وتتركين رجل حياتك لتخرجي معي؟ "

" نعم، إنه رجل حياتي ولكن ليست هذه الحياة ".

إن أفظع مافي الحياة هو الحياة نفسها.

الجسم البرونزي

استيقظت فجأة، بحثت بيدي عن زوجي. يجب أن تعلموا أني تزوجت امس. وأني اعتدت أن أقوم بهذه الحركة كل صباح في بيتنا عندما كنت أنام في سريري الواسع مع أختي تينا.

مددت ذراعي فدهشت لكني لم أصدم أو أحزن لأني لم ألق إلا الغطاء العاري الأملس والبارد. كان ما يزال يحتفظ بطيته كما كان عندما أُخرج من الدرج. ماذا حدث؟ مستحيل أن أتذكر أي شيء. رأسي ثقيل ودماغي معطل. سرعان ما اتخذت قراري: أخرجت رجليَّ من تحت الغطاء ووضعت قدميَّ على الأرض ثم وقفت. توجهت إلى النافذة عبر الظلام ويداي ممدودتان أمامي. ضايقني قميص النوم. انتصبت فجأة لكي أجد وسيلة لرفع هذه الستارة التي تدور حول عصا واستعدت وعيي لجسمي وفي الوقت نفسه عادت إليَّ ذكرى ليلتي. يجب أن أخبركم منذ البداية بأني أدين بزواجي إلى المظهر الخاص لجسمي.

في الصيف الماضي كان جسمي منتصبا بجانب جسم أختي لنقوم بحركات الأوتوستوب. وجسمي هو الذي أوقف أمامنا سيارة زوجي الحالي مع ضجيج مزعج لمكابحها. وهذا الجسم مذنب لأنه زاد عدد الاتصالات بهذا الرفيق إلى أربع أو خمس مرات في اليوم بدلا من مرة

واحدة في الأسبوع، وقبل دعواته إلى السينما والعشاء... وهو الذي قادنا إلى أمام المذبح. ولكن، ربما حان الوقت لأصف لكم هذا الجسم المهم جداًوالمرغوب جداً.

إنه جسم برونزي. لا تبتسموا. أريد فقط أن افهمكم أن أبعاده النحتية قد تكون مثيرة إلى أقصى درجات الإثارة بالنسبة لشخص شهواني كزوجي، حتى بدت وكأنها تصرخ فوق الأسطحة عن وجود طبع هو في الواقع غير موجود. هذا صحيح تماما لدرجة انـي في كل مرة أكون على الشاطئ أو في المسبح وأقوم بالتعري تماما فإن أول فكرة تخطر ببال الناظر إليَّ هي فكرة صلابة جسمي أكثر من فكرة جمالي (رغم أن جمالي لا بأس به) تماما كما يفكر الناظر إلى تمثال برونزي منحوت نحتا رائعا لكنه بارد وخال ومصمت. ذلك بالضبط هو الإنطباع الذي يوحيه جسمي لرجل عادي. للأسف إن زوجي غير عادي وصلابة جسمي هي التي تثيره.

وخلال فترة خطبتنا القصيرة كان يُمضى أوقاته في محاولة اغتصابي في كل مكان: في السيارة، عند أهلي، عند أهله، في محله للصياغة خلف الحاجز المختص للزبائن. كان جسمي بلا إحساس يتمرد عليه رغما عني تقربيا ويقاومه بوسائل "جسمية" وإذا أردتم برفسات ولكمات وصفعات.... كان يعزي نفسه بالتفكير بأني أقاومه لأمنع عنه شيئا لا يملك بعد الحق في الحصول عليه ولكن بعد الزواج سوف يتغير كل شيء. أنا أيضا كنت أظن ذلك، أو بالأحرى لا، كنت أوهم نفسي بالاقتناع برأي أختي بأن الأمر سوف يتغير. والذي حدث في الليلة الماضية أفهمني أننا كنا جميعا على خطأ.

مازلت أمشي على رؤوس أصابع قدميّ، قميصي مرفوع إلى ما فوق بطني وجسمي البرونزي مصمت أكثر من أي وقت مضى. مشيت من غرفة النوم إلى غرفة الجلوس. لم أدخل بل وقفت بالباب لأنظر. كما لو أن معركة طاحنة وقعت بين قاتل مصمم على القتل وضحية مصممة

على الدفاع عن نفسها دفاع المستميت. كانت مساند الكنبة الكبيرة مبعثرة عاليها سافلها، واللوحة التي تعلو الكنبة أصبحت عرضانية. الكراسي المقلوبة تذكّر بمطاردة مستميتة. والطاولة نفسها مقلوبة والمنافض والمزهريات وصندوق السجائر والزجاجات والكؤوس، كلها مبعثرة على السجاد وسط برِكٍ صغيرة من الماء وأعقاب السجائر والأزهار والسجائر الجديدة وكؤوس الشراب. رأيت دماً على ذراع إحدى الكنبات. إنه ليس دمي، أنا متأكدة من أنه دم زوجي.

تأملت مشهد العنف والأسى هذا، شيئا فشيئا رحت أخرج من خدر المنوم الذي ابتلعته وعادت إليَّ ذكرى بعض المشاهد. تماما على هذه الكنبة وقع الصراع المتوحش بين زوجي المسلح بحقه الزوجي ويريد أن "يمتلكني" كما يقولون، وبين جسمي البرونزي اكثر من أي وقت مضى والذي لا يريد بأي ثمن أن يسمع بزوجي.

ما إن دخلنا إلى الشقة بعد الاحتفال الديني والوجبة في المطعم حتى تحول هذا الرجل الذي كان مضغوطا جداًومترسماجداً، تحول إلى وحش مغتصب وقاتل. أقفل الباب بالمفتاح ووقف خلفي وكنت ما أزال واقفة وسط الصالون أحمل في يدي باقة من زنبق الوادي، أمسك بيدي، بطحني بعنف فوق الكنبة وحاول أن يمارس الحب معي على طريقة الحيوانات. أبعدته برفسة ونهضت وجريت. راح يلاحقني وهو يرمي كل ما كان في طريقه. لحق بي وأمسك بي من شعري. ورماني على الكنبة. صفعني مرات متوالية ثم قلب رأسي إلى الخلف ومرر يده من تحت ذقني وباليد الأخرى أخذ يخلع ثوبي وحمالة صدري ثم حامل جواربي ثم سروالي. أردت أن أؤلمه أكثر ما يمكن فوجهت ضربات قوية من ركبتي إلى خصيته. تفادى ضرباتي ببراعة وضغط على رقبتي حتى كاد ان يقطع انفاسي، كما لو أنه كان يريد أن يخنقني. طفق يشد شعر عانتي بكل قوة. استطعت بعد جهد جهيد أن افلت من يديه ورفعت الطاولة الفولاذية الضخمة بكلتا يدي ورميتها فوقه. عوى من الألم.

تهالك مشعثا منكوش الثياب على ذراع الكنبة فلطخه بالدم الـذي كـان يسيل من جرح في ركبته. ما أسرع ما هدأ روعاً وقال لي بصوت مازال لاهثا أنه خارج إلى الصيدلية ليشتري ما يلزم ليضمد ركبته وأنه مـا علـيَّ إلا أن آوي إلى سريري فهو لن يتأخر في العودة.

كنت أستمع إلى وصاياه الحكيمـة وانـا أجلـس عاريـة علـى الكنبـة المنكوشة، مشعثة الشعر، مكومة على نفسـي وركبتـاي مرفوعتـان حتـى فمي وشعري يخفي وجهي.

خـرج ولم أعـرف كيـف خـرج أو متـى، فقـد اختلطـت ذكريـاتي وبقيت لاطية في زاويتي لفترة طويلة. أحسست بالـبرد فذهبـت إلى النـوم في سريري دون أن أعي ما افعل بالضبط. بقيت ممددة تحـت الأغطيـة في حالتي نفسها من الذهول والهذيان. لا بد أنـي ابتلعـت كميـة كبـيرة مـن الأقراص المنوِّمة في رغبة مزدوجة بـالنوم والانتحـار في آن واحـد ولا بـد أني نمت نوماً عميقاً وبلا تقطع طيلة ما يقـارب مـن اثنـتي عشـرة سـاعة وهأنذا الآن مستيقظة بلا زوج.

ما هو الشعور الذي ينتاب المرء بعد ليلة عرس كهذه؟ سوف أجيب حالا: شـعور بـالغضب تجـاه الشـخص الـذي أسـدى النصـح. امسـكت بالهاتف وأدرت رقم البيت، أقصد بيت أهلي. أتاني صوت أختي. كانت ما تزال تحت تأثير التعاس لكن فضولها وتعطشها للأخبار جعلهـا تسـأل:

"إيه، كيف جرت الأمور؟ "

" بكل بساطة، لقد تركني. "

"ماذا تخرفين؟ ماذا حصل؟ "

" ما حصل هـو أن شيئا لم يحصـل. كنـت أريـد ولكـن في اللحظـة الأخيرة كان أقوى مني فلم أعد أريد "

" وهو "

"هو، شدني من شعري وصفعني. "

" وأنت ؟"

" رفسته وقلبت الطاولة الكبيرة التي كانت في الصالون فوق رأسه وجرحته في ركبته فخرج ليضمدها في الصيدلية وهو يقول: سأعود حالا ولم يعد. أنا وحيدة وليس معي قرش لكي أشرب فنجان قهوة بالحليب في أحد المقاهي على الناصية. آه، يمكنني أن أقول أني أحسنت صنعاً إذ اتبعت نصائحك ."

" ولكن لا علاقة لي بقصتك ".

" أنت التي نصحت لي أن أتزوجه وأنت تقولين هذا أو غيره... طالما أني لا أحس بشيء وأن لا وجود للرجال في رأيي."

" هذا غير صحيح ".

" هذا صحيح ولكن ثمة فارق بين الرجال. وزوجي رجل مهووس"

" قولي غير ذلك، إنهم متشابهون. والآن ماذا تنوين أن تفعلي؟ "

" أتسألينني؟ سوف أرتدي ثيابي وآتي إلى البيت."

"لا يمكنك أن تفعلي ذلك. لقد غادرت البيت وأنت فخورة بنفسك كثيرا... ما موقفك إذ تعودين منكسرة....؟ يجب أن تجدي حلا آخر."

" أي حل؟ لقد فكرت ولم أصل إلى حل".

" اسمعيني جيدا. لو كنت مكانك، كنت سأحاول من جديد عملية الأوتوستوب. لم تنجحي في المرة السابقة، لذا يجب أن تحاولي من جديد."

" أنت مجنونة أم ماذا؟ الأوتوستوب! من الأفضل أن أذهب إلى ساحة ناڤونا أو كامبودي فيوري وأرسل نفسي مع الرتسيين الذين أعرفهم."

"وبعد ذلك ماذا ستفعلين؟ لا. انتظري كي أشرح لكِ: تختارين نقطة استراتيجية، مثلا نقطة بداية شارع أوريليا وتدعينهم ينقلونك إلى

أبعد ما يمكن، إلى جنوة مثلا. و لم لا؟ وبعد ذلك سترين جيداً شيء يأتي بشيء..."

"حسن، سوف أفكر في الأمر. كيف تسير الأمور في البيت؟ ماذا تفعلون؟".

" أبي ذهب إلى المكتب وأمي ما تزال نائمة. منذ أمس لم يتغير أي شيء بعد."

" والكلب، كيف حال الكلب؟ "

" حاله جيدة. إنه هنا فوق المقعد بجانب السرير."

" ماذا يفعل؟ "

" أنه نائم. "

" تشاو، سأتصل بك قريبا."

وضعت السماعة وأنا أحس ببعض الإرتياح. عدت إلى الغرفة. نعم، الأوتوستوب، لم لا؟... في شاحنة، لكي أرى أبعد، إلى ما بعد المبّرد، انظر إلى الأفق والجبال الزرقاء وإلى السماء ذات الغيوم الخريفية الرمادية الداكنة والأليفة التي تمضي لا أعرف إلى أين لكي تلقي بأمطارها الثقيلة.

سرعان ما انطفأ حماسي. بينما جسمي البرونزي يدور تحت الدوش سمعت طرقاً على باب الشقة. كان الماء ينساب على جسمي الذي بدا لامعا عندما أسرعت لكي أسأل من الطارق. إنه صوت زوجي يرجوني أن أفتح الباب. أفهمني صوته الحقيقة مباشرة. إنه لم يهجرني و لم يفكر مطلقا في هجري بل أنا التي تركته من غير قصد في الخارج طوال الليل بعد عراكنا الشرس. وها قد عاد يطلب الصفح. أحسست ذلك من صوته المبحوح والمتوسل. وهكذا بدأ زواجي وكنت أظنه قد انتهى.

العقل والجسم

ما كادت أختي ألينا تبلغ الثالثة عشرة من عمرها حتى كان لها عشيقها الأول. صبي أشقر، تافه، يذّكر وجهه بوجه الضبع. كانت تلقاه في الشقة المجاورة لشقتنا حيث كان يعيش مع صديقين له، طالبين مثله. انا أكبرها بثلاث سنوات. كنا متحابتين كل الحب ولكن في ذلك اليوم فقط فهمنا أننا لسنا سوى شخصاً واحداً : كنت قبيحة شاحبة وكسيحة إنما ذكية وأمثّل العقل، وكان لها جسم متناسق متماوج كأفعى، كانت جميلة كتمثال، جبهتها بعرض إصبعين فوق وجهها الذي تملؤه عيناها الواسعتان وفمها الجميل وكانت تمثل الجسم.

العقل لا يحيا حياة حقيقية ؛ فقط من حياة الجسم وبالمقابل يؤمّن له شيئا فشيئا تبريرات مثالية بعض الشيء لمشتهياته.

كانت ألينا في ذاك اليوم تعذّبني بأسئلة من نمط: "مارأيك؟ هو يريد أن أذهب إليه وقد وعدني بهدية سوف أذهب ولكني خائفة، ما قولك؟"

قلت بحماس: " إذهبي إليه. ماذا تنظرين؟ إنك لن تلقي رجلا بل ستلقين الحب، الشيء الأجمل في الحياة ".

ومضت إليه، عادت إليه وانتهت بالنوم مع صديقيه الطالبين ثم مع أشخاص كثيرين. وكنت في كل مرة أختلق أعذاراً جديدة لكي أريح ضميرها. وفي المحصلة، بعد حوالي خمس سنوات كان لألينا عدد كبير من العشاق و لم أحظ بعاشق واحد. كتعويض عشت حياتها بكل عواطفي وكأنها حياتي.

ذات يوم، لم يعد لألينا رغبة في البقاء في المنزل بسبب الملل الذي تسببه حاجتها إلى الكذب على أهلنا الذين كانوا يعتبرونها فتاة صغيرة عواطفها نائمة لكنها تتأخر أحيانا في العودة إلى البيت. لكنها لم تكن تجرؤ أبدا على الذهاب إذا لم أوفر لها الأسباب الوجيهة أو بالأحرى الفرص المناسبة.

كنا - نحن الاثنتين - طالبتين في مدرسة الفنون الجميلة. سرعان ما أقنعتها بأننا يجب أن نصبح فنانتين وأننا، لكي نصبح فنانتين، يجب أن نغادر البيت أولا وأن نستأجر مرسماً ثانياً.

صفّقت الينا فرحاً ثم ارتمت على عنقي وصاحت:"ماذا سيحل بي لولاك؟" وبعد حديث ولكن حام مع الأهل حصلنا على ما نريد بل أكثر.

خصّص لنا أبي، الموظف ذو بعض الأهمية، راتباً شهرياً متواضعاً لكنه كاف. استأجرنا بناء مائل السقف مكوناً من غرفة صغيرة وغرفة واسعة بجانب قصر فارنيز. وضعنا سريرا لشخصين في الحجرة الصغيرة وفي الحجرة الكبيرة وضعنا أكواماً من الوسائد الكبيرة حول الجدران ونصبنا حاملي اللوحات بجانب النوافذ الكبيرة.

آنذاك بدأت حياتنا كفنانتين. كنا نخصص طيلة فترة بعد الظهر للفن. أنا التي كنت أؤمن دائما بتبريراتي المثالية كنت أرسم بحرارة وألينا ترسم أيضا بلا حماس. كانت تدرك أن موهبتها تكمن في شيء آخر. في آخر الليل نتوقف عن العمل ويبدأ استعراض الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء. بعضهم يأتي حاملًا النبيذ والبعض الآخر يحمل ما سنأكله

وآخرون اسطوانات أو غيتاراً. وهكذا بين الموسيقا والآحاديث في الفن والسياسة ونحن ندخن ونشرب منبطحين على وسائدنا، كنا نرى انبلاج الفجر. كنا معروفتين جدا في الحي وشعبيتين. كما هو مفروض، كان لألينا عشاق كثر و لم يكن لي أي عاشق. أحيانا عندما تخلو جيوبنا من المال كانت ألينا تتردد على تجار غامضين أو أصحاب محلات، تنام معهم ويدفعون لها. بالطبع، اختلقت لها سبباً ممتازاً لكي تتقبل هذه المواقف المشينة: "إنهم رجال لم يعرفوا لحظة شعرية واحدة طيلة حياتهم ، وأنت توفرينها لهم وهم يدفعون لك! أنا أقول لك إنهم لا يجب أن يدفعوا فحسب، بل يجب أن يقبلوا الأرض التي تمشين عليها."

ثم حلّت الأزمة. لقد سببها حدثان يبدوان بلا أهمية ؛ فقد حاولتُ الانتحار بابتلاع المهدئات الباربيتورية لأني أحببت شاباً و لم يحبني. وألينا التي استمرت في انفتاحها اصيبت بمرض الزهري السليم. انتهى كل شيء بغسل معدتي وببعض المضادات الحيوية لألينا.

لكن السحر توقف. سألتني ألينا كعادتها بعنف وبلا حزم: "وأنت، ماذا تقولين في ذلك؟ لقد سئمت الحياة في هذا الوحل. لقد تعرفت برجل كبير السن ومتزوج ويبدو أنه يرغب في أن يؤمن لي حياة البذخ التي أحتاج إليها حاجة مطلقة وهذا يعني أني يجب أن أتخلى عن مكري وأن امتهن هذه المهنة علناً. ما رأيك ؟."

غمرني سرور عام وقلت: " اتفقنا. كفى رسماً وكفى مضايقات، وكفى أسمالًا نشتريها من محلات (البالة)... لا تقولي إنك تتظاهرين بالرسم، لقد رسمت بجدية طالما أنك تحسّين بما كان يجب عليك ان ترسميه. واليوم تحسّين أنه ينبغي أن تفعلي شيئا آخر، حسنٌ، افعلي ما يحلو لك، دون حياء مفتعل."

لقد لاحظتم اني امتنعت عن تسمية المهنة التي تحس ألينا بواجب القيام بها في الوقت الحاضر والتي هي بكل بساطة مهنة "مومس". لا

تظنوا أنه كتمان خبيث من قبلي ؛ ففي هذه اللحظة ومن باب الاعتداد بالنفس والممالأة أجدني عاجزة عن أن أسمي " تعهرا " ما أعتبره بنية سليمة، تجربة ككل التجارب.

فيما بعد، وبهذه النية السليمة ـ أعطيت الدليل على الطريقة التي نظمنا بها حياتنا عندما انتقلنا إلى شقتنا الجديدة في باربولي. كانت شقتنا في ساحة فارنيز، مفتوحة للجميع، مشعشعة الأنوار بمساحات واسعة من الزجاج حيث كانت الشمس تدخل إلى المرسم أمواجاً. أما شقتنا في باربولي فقد كانت كتيمة معتمة صامتة تغطيها السجاجيد والستائر والموكيت... لا تفتح لأحد إلا لحامي ألينا الجديد. بالنسبة لي، قررت أن أصبح خادمة لألينا فكنت اعيش وأعامل على هذا الأساس. اكتشفت عندي موهبة طباخة ماهرة. عندما تكون ألينا في الصالون تتحدث مع عشيقها العجوز المتذمر والنزق (كان طويل القامة، نحيلا، أنفه مقوس وعيناه شريرتان)، كنت أغوص في كتاب للطبخ، أعتمر قبعة صغيرة وألبس مريلة بيضاء كربات البيوت وأعكف على إعداد مائدة حافلة بكل الأطباق الشهية. لقد أحببت هذه الحياة الوضيعة والحقيرة بل إني اتضعت إلى درجة أني كنت أجثو امام قَدَمَي الينا لأنزع لها حذاءها بينما يراقبنا عشيقها العجوز ذو الشعر الأشيب والمشعث بعينيه البوميتين.

ـ لقد توصلت إلى أن أذهب كل صباح إلى غرفتهما لأرفع الستائر وأضع أطباق الفطور على سريرهما. كنت أكافأ على صنعتي بما ترويه لي ألينا كل ما يحصل معها وما انفكت أن تطالبني بالنصح وترضخ لإرادتي أكثر من أي وقت مضى.

وحلت أزمة جديدة مختلفة عن السابقة. في الحياة لا شيء يتكرر، فقد تدلّهت ألينا بشخص يدعى دانيلو، كان منتفعاً وجباناً. نعم، لقد كان وسيماً بشعره العسلي الكثيف وعينيه الصافيتين وفمه المر وكان له جسم رياضي بلون ذهبي عجيب.

في البداية، كان دانيلو ياتي إلى ألينا عندما لا يكون العجوز موجوداً. وفيما بعد قدمته ألينا للعجوز فأصبحوا ثلاثة لا يفترقون. لا أعلم ماذا حدث خلال سفراتهم المتلاحقة داخل إيطاليا وخارجها ؛ في تلك الأمكنة التي تعجب ألينا فقط لأني لا أكون معها. ما عرفته أنهم سافروا الثلاثة إلى كينيا وعادوا منها اثنين فقد قتل الرجل خطأ بطلقة بندقية و لم يعرف أبدا إن كانت البندقية تعود لألينا أم لدالنيا. بعد التحقيق دفن العجوز في نيروبي. عادا إلى إيطاليا وعاشا معا.

عجّل هذا الموت في حلول الأزمة الثالثة في حياتنا: فالمال لم يعد متوفراً في البيت. وذات يوم أسرت لي ألينا بأن دانيلو اقترح عليها السفر بالسيارة إلى الشرق لشراء المخدرات ثم بيعها في أوربا. ماذا يجب أن تفعل؟ الصفقة مربحة جدا، وهذا مؤكد ولكنها في منتهى الخطورة وهي تكاد تموت خوفاً، اما أنا فقد قلت في لمحة خاطفة من العبقرية: "نعم، برافو، يالها من فكرة رائعة. أنا أيضا سئمت حياة الخلد هذه. هواء وشمس وضياء وآفاق رحبة وسعادة. هيا لنذهب."

في الواقع، لم يرحب دانيلو بفكرة ذهابي معهم وحاول بشتى الوسائل أن يمنعني من السفر فلم ينجح لأن ألينا قالت له في صحوة مباغتة أنها لا تستطيع العيش بدوني وإنني روحها.ومن يسافر ويترك روحه في البيت ؟

وسافرنا ضمن قافلة واجتزنا يوغوسلافيا ثم اليونان ثم تركيا ثم إيران. استمتعنا بالهواء والضياء والشمس أكثر من حاجتنا. لكن السعادة التي منيت بها نفسي افتقدها كليا.

صحيح اننا اكتسبنا – نحن الثلاثة – اللون البرونزي وصرنا في كامل لياقتنا بسبب الحياة التي عشناها في الهواء الطلق ولكن تحت هذا اللون البرونزي السليم كان ينمو شيء مضطرب ومشوش ومليء بالكراهية ؛ كنت أكره دانيلو إحساسي بأنه يريد ان ينتزع ألينا من

وصايتي وهو لم يُخفِ نيته في أن يستخدم ألينا لكي يدفع تكاليف السفر وكان يكرهني لأني امنعها. وهي التي تنبهت الآن لسلوكه أصبحت تكرهه لأنه يخيفها.

ذات مساء، في أنقره، تَرَكَنا دانيلو وحيدتين فقالت لي ألينا إن دانيلو هو الذي قتل العجوز وهي تخشى أن يبيعها خلال هذه الرحلة إلى أحد الأشخاص الذين يُسَمون تجار اللحم البشري وإننا إذا ما أردنا ألا ننتهي في ماخور من مواخير الشرق علينا أن نأخذ زمام المبادرة ونعِدَّ له نهاية شبيهة بنهاية العجوز. هل أحسست بالموافقة على كلامها وبرغبة في مساعدتها؟ كانت تتكلم بتصميم هادئ ويائس لا يصدر عن قلبها بل عن تجربتها. عند ذاك ولولعي بالانتهاكات الصغيرة وبأخلاقي السارية توجب عليَّ أن أضع رجليَّ على الجدار وأختلق تبريرا. واليوم وبما أن الأمر يتعلق بقتل رجل وجدت الدافع المناسب مباشرة وقلت: "بالتأكيد، إنه أتفه من لا شيء، إنه ساقط، غير جدير بالحياة، سوف أساعدك طبعاً، وسوف نخلّص العالم من هذا الداء ".

باختصار، امتلأنا كرهاً وقررنا محوه عند اول فرصة سانحة. اخترنا السلاح ؛ مسدسه الخاص المحشو دائماً والذي يخبئه دائما في زاوية من زواية علبة القفازات في عربتنا.

لحسن حظنا، وفّرت لنا المصادفة الدليل القاطع على اتحادنا القديم. فعند مفترق طرق في افغانستان وبين الهضاب المصفرة والحارة وتحت شمس باردة ومعمية تتربع في كبد سماء زرقاء قاسية وقف أوربيان بالقرب من سيارة ثم حركا ذراعيهما. توقفَ دانيلو واخرج رأسه من نافذة السيارة ليطرح السؤال المعتاد:"هل من خطب؟" كردّ مناسب أخرج احدهما مسدساً وأطلق النار على دانيلو ثلاث مرات متوالية مصوباً إلى رأسه ثم اقترب منه وسدد طلقة الرحمة على صدغه مباشرة. بقي دانيلو ممسكاً بالمقود، منحنياً قليلا. سال دمه على وجهه في سواقٍ صغيره.

بعد ثانية وصل أربعة من رجال الشـرطة الأفغـان بسـيارتهم. وبـدلاً من أن يطاردوا قاتلي دانيلـو أوقفونـا وحملونـا إلى قريـة مجـاورة وأُبلغـت أسماؤنا ليس فقط لمهربي المخدرات بل أيضا إلى الشرطة المحلية.

رجال الشرطة المحليون سجنونا في قصر صغير ناصع البياض له فتحتـان مسننتان ويربو على هضبة مطلة على القرية. أمام هـذا الحصـن الصغـير كـان يقف رجل ضخم ملتح يرتدي بدلة ويحمـل مسدسـين مغروسـين في نطاقـه. هو الذي استجوبنا. دام استجوابي عدة دقائق وطال استجواب ألينا حوالي ساعتين لم أعـرف مـا حـدث بينهمـا و لم أشـأ أن اعـرف. في اليـوم التـالي أطلقوا سراحنا فعدنا إلى كابول واستقلينا أول طائرة إلى روما.

الآن نحن نعيش من جديد مع اهلنا. ألينا حامل ولا نعرف ممن ؛ أمن دانيلو أم من الشـرطي الأفغـاني؟ بينمـا ننتظـر ولادة الطفـل، كـل شـيء معلق. الجسم لا يتحرك والعقل ليس لديه شيء ليبرره. بعد الـولادة كـل شيء سيعود من جديد: الجسم إلى الحركة والعقل إلى التبرير.



امرأة عاديّة

"قضي الأمر هذه المرة... قضي الأمر هذه المـرة... قضـي الأمـر هـذه المرة."

وأستيقظُ وسط هذا النحيب، أجلسُ في سريري وأحتوي رأسي بين يدي وأغرز أصابعي في شعري. هذا النحيـب هـو الصرخـة الـتي أطلقهـا لأستقبل النهار الجديد، كل صباح أقوم بهذا العمل تقريبا.

كان زوجي قد استيقظ قبلي بهـدوء. أُمـرر يـدي مـن الناحيـة الـتي اعتاد ان ينام فيها وأحس بـدفء خفيـف ولا يسـعني إلا أن أشـفق عليـه وأنا أفكر بعذابه بعد أن انتحر.نعم، أنا متأكدة من أني سأكون مضطـرة للإنتحار بين يوم وآخر.

أخرج من سريري بادية السرور، أدندن أغنية بصوت خافت، أمضـي إلى الحمام، أجلس أمام المرآة وأقوم ببعض حركات التكشير. أنا شـابة، لي من العمر ثلاث وعشرون سنة، وجهي جميل، ناعم التقاسيم، انفـي صغير وفمي كبـير أمطـه في معظـم الأحيـان. أتسـاءل لم أتسـلى بالتكشـير حتـى أصبـح شـبيهة بسـاحرة. أخبـئ تقاسـيمي خلـف شـعري المشـعث، أسـبل

أجفاني، أحوِّل عيني، أضغط على أسناني وفي النهاية أنفجر ضاحكة، اقتربت من المرآة لأقبل خيالي قبلة صغيرة وأتمتم "من أنت؟ أرجوك قولي لي من أنت؟" اعلموا جيدا أنني فيما أقوم بهذه الحركات ينتابني إحساس باليأس ولكنه يأس كيف أسميه؟ إنه يأس مبطن بالسعادة.

آه، الآن حان وقت قضاء الحاجات. في اللحظة نفسها التي أتساءل فيها بكل قلق صادق: "ماذا أفعل لأتابع حياتي؟" في هذه اللحظة أخلع قميصي واجلس على المبولة وأقضي حاجتي الصغرى واحس بالسعادة.وبينما أجيب نفسي وأنا افرك يدي بشكل متخيل وأنظر يائسة إلى الفراغ:"لا، الحياة شيء مستحيل!" في هذه اللحظة أقضي حاجتي الكبرى ؛ مرة أخرى تختلط السعادة باليأس ويطرد اللون الوردي اللون الأسود.

ما المشكلة في نهاية الأمر؟ المشكلة هي: عندما أكون في أتعس حالاتي أكون سعيدة بتعاستي، أنا معقدة أليس كذلك؟ لكني أود أن أعرف من هو وما هو غير المعقد. في المدرسة، أذكر ذلك تماما تعلمت أنه يوجد في الطبيعة كائنات لها خلية واحدة لذا يسمونها وحيدات الخلية، حسنٌ، أنا مستعدة لأن أقسم أنه إذا أعطي الكلام لهذه الكائنات فإنها ستصرخ على الملأ: "نحن معقدات، معقدات بشكل فظيع، نحن وحوش التعقيد."

الساعة الثانية عشرة ظهرا، أنا وكلبي ذو الرباط خرجنا من المصعد الذي وضعنا في بهو الدخول للمبنى. خلع البواب قبعته، وهو رجل وسيم، دون جوان من الضواحي ثم انحنى بمبالغة تثير الشبهة بعض الشيء. أنا متوهمة بعض الشيء. فجأة، أرغب في أن أقول له، وهكذا وبكل براءة: " قل لي يا نيكولا من أنا – تعال لنذهب إلى عندك، إلى مسكنك – وهناك ستقول لي من أنا." في اللحظة التي فتحت فيها فمي للتكلم مع البواب الذي كان ينظر إليَّ نظرة مفاجأ، شاء القدر أن يشدَّ الكلب رباطه ويضطرني إلى الخروج إلى الشارع، ذاك الكلب الذي لديه

فكرة عن نزهتنا الصباحية. تركته يجري وأنا أفكر أنه يجب أن أترك الجواب عن هذه المسألة الجوهرية في حياتي إلى المصادفة.

إلى المصادفة والحالة هذه، حالة كلبي الذي سيقودني بكل تأكيد إلى مكان سأجد فيه معنى محدداً وقادراً على تحريض آليات عقلي الباطن الخفية. في الواقع، كان الكلب يقودني من باب إلى آخر ومن بيت إلى آخرعلى طول رصيف الشارع المغروس بالأشجار، شارع بيتنا. كنت أريد أن أتسكع قليلا، أريد أن أتنزه ببطء وتحت شمس الخريف الباردة والداكنة. أردت أن أمشي فوق الأوراق الميتة الحمراء أو الصفراء. لكن كلبي العنيد والذي بدا واعياً لما يريد لم يسمح لي بذلك. ها هو ينعطف فجأة في شارع تجاري ويتجه مباشرة إلى مدخل ملحمة. ما وجه التشابه بين الملحمة وبيني؟ لكن الكلب يشدني بكل قوة برقبته القوية كرقبة ثور تغلبت على قرفي من منظر الدم ودخلت.

فهمت مباشرة. فقد انتصبت أمامي واجهة العرض من المرمر الرمادي. كانت عالية جدا بحيث عانيت حتى تمكنت من رؤية اللحام الذي كان ينظر إليّ مكتوف اليدين. كان قد وضع إلى يساره ميزاناً نحاسياً كبيراً والى يمينه كانت الخشبة الكبيرة وعليها اللحم وفوقه فأس كبيرة وخلفه علقت لوحة على الجدار كُتِبَت عليها أسعار اللحم: ميزان وخشبة وفأس وأسعار من هو ذاك الأعمى الذي لا يرى في هذه الأشياء رموز العدالة التي لا ترحم والتي انشددت إليها بلا دعوة، شدني شعور غامض بالذنب؟ من ينكر أن الملحمة هي محكمة في المواقع وان اللحام قاضٍ؟ مرة أخرى أحسست بالرعب من هذه التعقيدات التي اكتشفها في نفسي في كل مناسبة. لم يبق من صوتي إلا القليل عندما طلبت مائتي غرام من اللحم المفروم لكلبي. أعدّها اللحام. دفعت له ثم تناولت الصرة وخرجت.

بعد الظهر طرحت السؤال الذي يشغلني على طبيبي النفساني الدكتور غارغيولو الذي أتيت لاستشارته: لماذا أخذت مباشرة بشعور

بالذنب عند اللحام؟ للأسف، لم يكن غارغيولو من أولئك الاطباء الـذي يناسبونني، فقد كان شكاكاً ويلجأ دوماً إلى تسهيل أية مشكلة، أما أنـا فقد كنت غارقة في رؤيتي المأساوية لكل شيء في الحياة. وإذا كـان كـل ما يقولونه صحيحا - ولكنه حتماً صحيـح - بـأن نجـاح العـلاج يتعلق كثيرا بدرجة التعاون بين الطبيب والمريض. أخشـى ألا نكـون كذلـك - غارغيولو وأنا -، فخلال عام أو عامين مازلنا في النقطة نفسها الـتي نحن فيها اليوم: نقطة الصفر. مضى وقت الزيارة في فحص شـعوري بـالذنب تجاه اللحام. كالعادة سعى غارغيولو إلى التقليل من شـأن حـالتي النفسـية وسعى إلى معالجتي كشخص بسيط بل أكثر من بسيط.

في النهاية، عندما أحرجته، غاص في شروح هامشية كليا وطويلة لكي تمضـي السـاعة دون أن يُعـرّض نفسـه للمجازفـة. وعـدت إلى البيـت دون نتيجة إيجابية، عدت ساخطة جـداً ومصممـة علـى معاقبـة غـارغيولو علـى كسله وعلى لامبالاته وذلك بتأخري قدر الإمكـان عـن دفـع أتعابـه لكـني فكرت وقلت لنفسي بأنـه سـوف يسـارع إلى اعتبـار هـذا التـأخر مظهـراً عصابياً يدل على أن اتعالج عنده لا لأني أعاني مـن كونـي معقـدة بشـكل مضحك بل لأني مغرمة به. لا، ولكن لاحظوا ذلك! هذا الرجـل الضئيـل ذو الوجه المليئ بالغضون والذي يشبه كومة مـن الخـرق وقـد زرعـت فيـه بالمصادفة قطعتان من الزجاج الأزرق. هذا! أهـذا هـو النـوع مـن الرجـال الذي يمكن أن أقع في غرامه! لذا تخليت عن فكرة العقاب لكني قررت أنه يجب عليّ أن أجد حجة مناسبة تقوم في الوقت نفسه بمقاومة كـل محاولـة للتحليل النفسي وبتبديل هـذا الغـارغيولو البليـد والعجـوز بطبيـب حيـوي وعصري وقادر على الاهتمام بي بشكل صحيح.

نعم، ذلك لأن جوهر المشكلة هو: إني لست معقدة إلا أمـام النـاس الذين يعرفون أني معقدة، أما مع الآخريـن، مـع غـارغيولو مثـلا، أُصبحُ بسيطة مباشرة، أشبهُ في كل شيء تلك الكائنـات الـتي أسـلفت الحديـث عنها والتي ما هي إلّا خلية وحيدة غير مسؤولة وآلية. إن غارغيولو، تماما

كما سبق وشرحت لكم، غير قادر نهائيا على فهم عقدتي، بعكس كوسيمو، ذاك المثقف المترف كثيراً والسطحي الذي أتى لزيارتي عند الأصيل. رغم أنه غير محترف التحليل النفسي مثل غارغيولو لكنه، كما يطيب له نفسه أن يقول: مكتشف للأعماق. كوسيمو يمتلك هذا الفهم العميق وحتى لدرجة أنه بعد الرحلات المضنية التي يقوم بها في عقلي الباطن. يحدث لي أن أحن إلى أحاديث غارغيولو المتهربة. طويل، أنيق، نحيل، متأنق وأخاذ ومعتز في أحاديثه، لا ينقصه إلا اللباس الكهنوتي والجلوس خلف الشبك على كرسي الاعتراف لكي يمثل بامتياز ذلك الرجل الذي يقال له الكثير من الأمور والقائل متأكد من أن أمره يفتضح، لكنه يقوم بالتنقيب في أحشائه ويقطع كل شيء قطعا صغيرة، ملء بسماحة دقيقة ومشاركة.

بالفعل، بعد أن حدثته عن إحساسي بالذنب نحو اللحام رأيته ينقض على كلامي كما ينقض كلب جائع على عظم قديم. فهو يرى أن فكرة الشبه بين الملحمة والمحكمة واللحام والقاضي تعود أصلا إلى حيرتيّ في موضوع زوجي وحياتي الزوجية... يعتقد أني كنت أريد من اللحام وهو في العالي، خلف طاولته أن يقنعني بأن أهجر زوجي أو على الأقل أن أتخذ عشيقا في أقصر وقت ممكن. قد يظن أحدكم بأن كوسيمو حلل فكرة الملحمة وفي ذهنه فكرة ثابتة وهي أنه يريد أن ينام معي... أبدا. إنـي على ثقة من أني لو ارتميت في أحضانه وأنا أصرخ بأني أحبه فسيموت هلعاً ؛ لأنه ليس من أولئك الناس الذين ينتقلون مباشرة من التحليل النفسي إلى مخدع النوم. إن ولعه في المبالغة في التمحيص ولع صادق لا تشوبه شائبة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نجد عنده الملكة اللاواعية لمخرب غير مبال للعلاقات الزوجية وهو مخرب فعال. أخيرا وبعد أن ناقش فرضيته طويلا صرفته محتجة بألم فظيع في رأسي. عندما بقيت وحيدة أدركت أني أجذف في اعالي البحار ؛ فغارغيولو يريدني بسيطة وكوسيمو يريدني

معقدة ولكن في الواقع لا أحد منهما "يريدني" حقاً، أقصد في اتجاه تحمل مسؤولية حياتي، في مكاني، في النهاية لم يبق لي سوى زوجي.

أعرف مسبقاً أني لا أستطيع أن أخضع لتحليل عنده كما أفعل عند غارغيولو ولا أن أروي له اسراري ككوسيمو. زوجي ذكي لكنه يدخر ذكاءه لعمله فهو مهندس معمار وهو خارج مكتبه وورشته رجل كالآخرين، أعني رجل عادي فكيف لشخص معقد مثلي أن يتصرف مع شخص عادي كزوجي؟

الأمر في منتهى السهولة. يجب أن أتصرف كامرأة هي الأخرى عادية. وماذا تفعل امرأة عادية؟ مرة أخرى الأمر في غاية السهولة ؛ تخلع ملابسها بسرعة، تلبس ثوب الحمام، تجلس إلى النافذة وتنتظر بفارغ الصبر إلى ما يجري في الشارع.

ما إن تلمح سيارة زوجها تتقدم أو تتراجع لتأخذ مكانها، حتى تجري المرأة العادية إلى غرفتها، تدير المفتاح دورة ثم ترتمي إلى سريرها. بعد دقائق تسمع ضربات على الباب والمرأة العادية لا تجيب. صوت زوجها يناديها باسمها، يرجوها أن تفتح، يأمرها بذلك، يهددها وهي تتابع صمتها. عند ذلك يذهب الزوج أو يتظاهر بالذهاب ثم يعود ليهز الباب تحت وقع ضربات قبضته وركلاته. ليس هذا سبباً لكي تقرر المرأة العادية أن تفتح الباب، بل تكتفي بأن تقول بصوت ناشج وطفولي بأنها ليست جائعة وترجوه بأن يدعها بسلام وأن يذهب ليتغدى وحيداً. عند ذلك يتكلم صوت الزوج عن الحب فتنفجر المرأة العادية باكية وتغرز وجهها في الوسادة وتعوي كذئبة. ما الذي يحدث لها؟ منذ قليل كانت تنتظر زوجها على النافذة، كانت تحس بسرور لرؤيته مجدداً... بعد ذلك ولكي تدغدغ انتباه زوجها أرادت أن تفهمه أنها يائسة وها هي الآن يائسة حقاً. رددت بصوت عال بأنها لم تعد ترغب في الحياة وبأنها ستنتحر ذات يوم. وفيما هي تتكلم كانت تصيخ بسمعها بقلق تسمع

الضجيج الجهنمي الذي يحدثه الزوج المسكين وهو يحاول أن ينتزع قبضة الباب. لم تستسلم المرأة العادية، بل لم تتوقف عن البكاء.تركت ثوب الحمام ينزلق أرضاً ثم ذهبت لتدير المفتاح ثم عادت لترتمي على سريرها حيث تمددت وهي تغطي عينيها بذراعيها المطويتين. ثم يحصل ما يجب أن يحصل: نوع من الطقس الجنسي بينها وبين زوجها، طقس يتكرر كل يوم، لحظة عودة زوجها مساءً إلى البيت.

بعد ممارسة الحب تحس المرأة العادية بسعادة غامرة لكنها تحس في الوقت نفسه بتعاسة لأنها سعيدة. هل يمكننا أن نعرف ما فائدة التعقيد إذا كان المرء يتصرف في النهاية كشخص بسيط؟.

الزمن..... لا وجود له

متى رميتُ الهاتف على رأس خادمي؟ صباح أمس؟ هذا الصباح؟ منذ شهر؟ منذ ثوان؟ لست أدري.في النهاية، لا يهمني كثيرا أن أعرف. لأنني أعرف، وبكل تأكيد وكنوع من التعويض أن أي جواب سيكون غير دقيق. ذلك لأني نجحت في الخروج من الزمن بعد جهود مضنية. وهذا يتعلق بكل ما يجري لي أو بكل ما جرى أو ما سيجري ؛ وكلمات مثل أمس، اليوم، غداً ليس لها أي معنى بالنسبة لي.

كان الوقت مناسباً، كان الوقت مناسباً جداً – اسمحوا لي أن ألعب على الكلمات – ليتوقف الزمن عن تعذيبي بقعقعته المستمرة والثقيلة كأصوات جنازير الدبابات أثناء سيرها أو كصوت النقّال لجنازير الرفع. وقد أصبح مجنونة بعض الشيء من فرط سماعها.

هل تعلمون أن المرء يقوم بعمل ومن ثم يقوم بآخر ثم بثالث ورابع وخامس وسادس وهكذا... وأن هذه الأعمال بدلاً من أن تكون مجموعة معا كأزهار في روض أو كالحصى على شاطئ رملي وان هذه الأمور تصطف كجنود وبشكل آلي كمشاة في جيش مجهول لكي تشكل صفوفاً لامتناهية من الأسباب والنتائج التي تبذل الذاكرة إزاءها جهداً ضائعاً لكي تشبه في النهاية جنرالاً قديماً مصاباً بالربو يستعرض جنوده ليل نهار ؟

والآن كما أسلفت، انتهى كل هذا: خرجت من الزمن وأية قوة إنسانية لا تستطيع إدخالي فيه من جديد. لكن غزوي حديث العهد، لا أصدقه حتى الآن كلياً وأنا بحاجة إلى تثبيته ومن أجل هذا السبب أسأل وصيفتي من جوف سريري وأنا نصف مستيقظة، وكانت تمرر أنفها بين مصراعي الباب :

" آه، أهذه أنت يا جيزونيا؟ قولي: متى ألقيت بالهاتف على رأسك؟"

"منذ زمن ليس بطويل يا سنيورة."

"زمن ليس بطويل؟ أمس، أليس كذلك؟"

"أمس يا سنيورة."

"كنت أود أن أقول: هل تتذكرين بدقة اليوم والشهر والسنة التي ألقيت فيها بالهاتف على رأسك؟"

"يا سنيورة، السنة هي ١٩٧٤ والشهر هو أيار واليوم هو السابع منه أي اليوم."

"والساعة؟"

"الساعة هي ياسنيورة هي الحادية عشرة إلا خمس دقائق، أعرف ذلك لأن السنيورة تركت بطاقة لتقول لي أنها لا تريد أن تستيقظ قبل الحادية عشرة وعندما هتف المهندس زوج السنيورة من الورشة وطلب مني الكلام مع السنيورة، كانت الساعة تمام الحادية عشرة إلا خمس دقائق وعندما أبلغت المهندس أنه يجب ان لا أوقظ السنيورة طلب إليّ أن أفعل بكلمات لا أستطيع ان أكررها، لذا شحذت شجاعتي بين يدي ودققت الباب وعندما رأت السنيورة في الساعة الجدارية أن الساعة مازالت الحادية عشرة إلا خمس دقائق رمت بالهاتف على رأسي."

"انا نظرت إلى الساعة الجدارية؟ اعلمي يا جيزونيا أني لا أنظر أبدا إلى الساعة الجدارية. ماذا كانت الكلمات التي لا تستطيعين تكرارها؟"

" كانت كلمات بذيئة يا سنيورة "

" قولي لي على الأقل ماذا كان يريد زوجي "

" لا شيء. لم يكن يريد شيئا. فقط قال أنه بدلًا من الذهاب كما كان قد قرر بألا يعود قبل عام أو عامين.... "

" هل قال عاماً أو عامين؟ "

" نعم يا سنيورة، عاما أو عامين... وأنه سيعود لتناول الغداء كالعادة"

انغلق الباب من جديد وبدأت التفكير. من المؤكد أني أُدين لزوجي بشرح حول ما رآه مساء أمس ولكن هل كان ذلك امس مساءً؟ أي كوفرندو وأنا كنا متعانقين على الشرفة بينما كان الآخرون يلعبون الورق في الصالون. في الحقيقة ليس ثمة شيء عظيم يستحق الشرح، فأنا أخون زوجي منذ يوم عرسنا، هذا واقع والوقائع لا تحتاج إلى شرح.

مما لا ريب فيه أن بيني وبين زوجي ثمة شيء ليس على ما يرام، شيء لا يعمل بشكل جيد ربما حتى قبل زواجنا، منذ أن كان يغازلني مثلما كان يفعل كثيرون غيره. اخترته ذات يوم مستندة إلى معيار تقليدي هو أنه هذا هو الرجل الذي كنت أحبه أو الذي كنت أعتقد أني أحببته أكثر من الآخرين. بالرغم من هذا الحب وربما بسبب هذا الحب ها أنذا مستمرة في خيانتي له مع أعز أصدقائه عشية العرس.

طبيبي النفساني يعتقد أن هذا يدل على أني أريد معاقبة نفسي لكوني لم اقم بعمل كان عليّ القيام به ؛ في طفولتي كان يفهم وأنا أقوم باستمرار بأعمال لا ينبغي لي أن أفعلها و لم أكن أريد أن أفعلها. أنا معقدة أليس كذلك؟ لسوء الحظ، هذا التعقيد المغري على سرير الطبيب لا يلغي التفسير، إني أموت مسبقا من القلق مما يجب عليّ أن أُعدّه لزوجي حول ما جرى مساء أمس.

فجأة انفجر كقنبلة، يقينٌ في رأسي وحمل إليّ السكينة: الزمن ليس له وجود. حقا الزمن ليس له وجود ولكن ما فائدة الكلام عن شعور بالذنب وعن الذنب والعقاب والخطأ وعن كل هذا الهراء الذي يزجه طبيبي النفساني للتبرير، هل هو ثمن أتعابه المرتفع إلى حد يثير الضحك ؟

لو كان الزمن غير موجود كما أنا متأكدة يمكنني إذا أن أستخلص من ذلك مع بعض الحق أن علاقتي بغوفريدو "لم تبدأ بعد"، أعرف أين ستبدأ. بعد ستة أشهر، خلال الرحلة التي سنقوم بها نحن الثلاثة إلى مصر، غوفريدو وزوجي وأنا. بالتحديد في الأقصر، في لحظة زيارتنا لقبر توت عنج آمون زوجي المتسرع أبدا والذي لم تغزه المشاعر الفنية سوف يخرج أولا، سيرتمي عليّ غوفربدو ويمسك بي من عنقي ويتمتم بين قبلتين: "هل تعرفين من اكون؟ أنا توت عنج آمون. أنتظرك منذ ثلاثين قرنا، أخيرا عدت وها قد انبعثت من جديد خصيصا من أجلك أنت". يالها من لقية مسلية ولكن بما أن المكان الذي سنلتقي فيه مشكوك فيه مع ذلك يجب أن أنوه وبقوة عظيمة إلى شخص مثلي حساس إلى هذه الدرجة حول مسألة ذريعة الزمن. ثلاثون قرنا؟ كيف أقاوم شخصاً ينتظر سعادته منذ ثلاثين قرنا؟ وسيضيف غوفريدو وكأنه يقرأ أفكاري: "الزمن لا وجود له أنا توت عنج آمون لكني أيضا غوفربدو المجنون بك، اليوم كما منذ ثلاثين قرنا وكما بعد ثلاثين قرنا وكما إلى الأبد". تبرير مناسب أليس كذلك؟.

كيف أشرح لزوجي أني بريئة، بريئة كل البراءة لأن شيء لم يحصل مع غوفريدو. لماذا على المرء أن يعترف بذنبه طالما أنه لم يرتكب أي ذنب ؟

للأسف، إني أعرف ردة فعل زوجي كيف ستكون وكيف سيكون جوابه.

تلك الرحلة إلى مصر قمنا بها منذ حوالي ستة أشهر، بالنتيجة أنا مذنبة ويجب أن أقبل هذا الأمر وأمورا أخرى متشابهة، موجهة بجسد كبير نحو اكتشافي الرائع لعدم وجود الزمن، إذا فكرنا بهذا الاكتشاف.

كنت أروي لنفسي كل هذه الأمور تحت الدوش القوي التدفق كإبر تنغرس في رأسي وتحرض فكري.

بعد ذلك وبينما كنت أقصع جسمي الجميل إلى الخلف، جسم فتاة شقراء، وأبرز نهدي اللذين اصبحا مسطحين تماما وكأنهما غير موجودين، عرضتهما لتدفق الماء الغالي ليغمرهما ويجعلهما قاسيين، أحمرين، أشبه بمرمر وردي. عند ذاك وافتني الفكرة – طالما أن الزمن لا وجود له – بأن أشرح لزوجي بأننا " اليوم " في المكسيك (حيث قمنا برحلة شهر العسل إلى هناك) في أوكساكا وأن الأمر الأول: لم أكن أعرف غوفريدو بعد وثانيا، في اللحظة نفسها بعد رحلتنا المنهكة إلى الأطلال ما قبل الكولومبية أخذنا دوشا سوية قبل أن ننزل إلى غرفة الطعام في الفندق لتناول الغداء. كان المانع الوحيد هو أن زوجي ليس هنا، بجانبي، لكني أخطأت لأنه ها هو ذا. إني أراه يبزغ من خلال بخار الماء الغالي عاريا تماما. أسود (لأمر غريب تمام أن يتناسب المزاج السيء مع العري) وضع قدميه على الأرض ووقفت تحت الدوش متحاشيا أن يلامس جسمي. قلت له من خلال شعري الذي ألصقه الماء بوجهي: " لا تكن عنيدا. هل نسيت اننا في رحلة شهر العسل؟ " رأيته يرمقني بنظرة حانقة ثم يخرج من الحمام ثم يمضي كسيرا كريما.

(شيء آخر أود قوله: الكرامة لا تتناسب وجسم رجل عار) صرخت به: " أنت مضحك! " هز كتفيه ثم اختفى دون أن يلتفت فانقبض قلبي من القلق، صحيح أني كنت أخونه دائما ولكن الصحيح أيضا أني تزوجت منه عن حب وأني لا أطيق أن يعاملني ببرودة.

خرجت من الحمام، ارتديت ملابسي وذهبت إلى غرفة الطعام.

كان زوجي قد أنهى طعامه تقريبا، على الطاولة أمامه كان يوجد كأس من الفريز، وضعت الخادمة أمامي طبقا من الهليون، بدأت أمص أول قطعة من الهليون فامتلأت عيناي فجأة بالدموع. قلت، وأنا أحاول أن أبتسم، لكني عجزت: "أي رجل جدي أنت! أنت لا تعلم أنه كان عليك ألا تكون سيء المزاج في رحلة شهر العسل؟ إنها مهمة رحلة شهر العسل، الحياة كلها متعلقة بهذه الأيام القليلة."

تمتم دون أن يفارق طبقه بعينيه: "رحلة عرسنا! لقد قمنا بها منذ أربع سنوات وأنت تعرفين تمام المعرفة لم لا أرغب اليوم في المزاح. "

" لكني لا أمزح، إننا في رحلة العرس. لقد عدنا للتو من زيارة لأطلال أواكساكا وقد أخذنا معا دوشا وها نحن نتناول الغداء في غرفة الطعام في الفندق. "

"نحن في روما، لقد عدت مغطىً بالغبار من الورشة، إننا نجلس إلى المائدة في بيتنا."

" نعم، نحن في روما ولكننا أيضا في أواكساكا وخاصة نحن في رحلة عرس. بالنسبة لغوفريدو أليس كذلك؟ غةفريدو هو المقصود ، أليس كذلك؟ إطمئن لم يحدث شيء بعد."

رأيته ووجهه مضاءً إذ قال: " ألا تودين أن تقولي أنه قبلك لأول مرة أمس؟ "

وددت أن أتركه غارقا في أوهامه لكني لم أستطع يجب ان أبقى شريفة حتى النهاية: "قلت: لم يحدث شيء بعد. لكن كل شيء سيحدث ومستحيل أن يحدث شيء آخر. وحتى يمكنني أن أقول لك أين سيحدث هذا ومتى: بعد ستة أشهر، في مصر، في الأقصر، في قبر توت عنج آمون".

رأيته يركز نظراته عليّ كانما يخترقه شك غير منتظر ثم قال ببطء: "لقد قمنا بهذه الرحلة منذ ستة أشهر مع غوفربدو."

"قمنا بها ونقوم بها وسنقوم بها"

"قمنا بها، إني أفهم الآن كل شيء... أنا خرجت أولا تحت شمس معمية وأنتما الاثنين بقيتما داخل القبر بلا سبب ظاهر. الآن فهمت لماذا".

أطلقت صرخة يائسة: "لا، أنت مخطئ ، لم نتخلف عنك بعد. سوف نتخلف بعد ستة أشهر. حاول، أتوسل إليك ويداي مضمومتان أن تحاول أن تفهم أن شيئا لم يحدث بيني وبين غوفربدو. لم يحدث شيء بعد. لا شيء يستوجب أن تلومني عليه."

فلان !!! الفريز والكأس وطبق التحلية طارت كلها في سماء الغرفة. انسحقت حبة فريز على قميصي ، أحد أفضل قمصاني. من المؤكد أن زوجي لا يعرف أن بقع الفريز لا تزول أبدا. انطبق الباب وبقيت وحيدة.

نهضت وذهبت إلى النافذة بحركة آلية. بنايتنا تطل على أحد الأرصفة التي تساير نهر التيبر. عبر الزجاج وعبر دموعي رأيت أشجار الضفة الأخرى مصفوفة كالسنين وخلف الأشجار رأيت السيارات تتسرب كالثواني والدقائق. كشفافية خلف المنظر اليومي، رأيت كما على صورة فوق صورة منظرا مختلفا كل الاختلاف. نحن في روما والزمن لا وجود له.هضاب مشجرة وقفراء تنحدر نحو النهر. راعٍ يرتدي الجلود يخرج من كوخ ويقود اغنامه لترتوي من مياه التيبر. عندَ عتبة الكوخ تقف امرأة طويلة القامة، قوية، ترتدي الكاب وتحمل مغزلا في يدها. إنها تغزل وفي الوقت نفسه تتابع الراعي بعينيها. هذه المرأة هي أنا.

الحياة غير النظيفة

حزمت أمري. دفعت الأغطية عني، حركت ساقي، وضعت قدميّ على الأرض وها أنذا أقف: ألبس قميصي بتكاسل ثم أمشي إلى الحمام وأنا أهرش ساقي.

هنا، يمتد مشهد كل يوم أمام عيني اللتين مازالتا وسنتين: مناشف صغيرة وكبيرة ملقاة في جميع الزوايا، برك ماء صغيرة على البلاط، الصابون يميع في حامله الذي يفيض ماءً قذراً.

لقد أنهت أسرتي زينتها وتفرقت لتتركني نائمة، الشقة خالية: فأبي ذهب إلى مكتب المحاماة وأمي إلى القداس وإخوتي إلى الجامعة والخادمة إلى السوق، وأنا؟ لديّ أيضا واجبي الكبير، واجب المهنة الذي عليّ أن أؤديه: عند الظهر يجب أن أستقبل الرجل الذي يجب عليّ أن أتزوجه في أقرب وقت ممكن نظريا (ما من كلمة تناسب أكثر من هذه الكلمة).

لماذا قلت واجب "المهنة"؟ ذلك لأني عملياً، تربيت ونشأت ودرست لكي ألقي بكلابي على زوج ما في زمن معين. كان ذلك الزمن

المعين هو العشرين من عمري، من حيث المبدأ. وأنا اليوم في التاسعة والعشرين من عمري فما الذي حدث؟ إن ما حدث بكل بساطة هو أنه من فرط ما سمعني الآخرون أقول إن هدف حياتي هو الزواج وتكوين أسرة وإنجاب أولاد، ذهبت إلى أبعد من أحلام مربيّ وأمانيهم (أقصد من أنجبوني). ففي رأيهم يجب أن أكون امرأة، بمعنى آخر، يجب أن أكون شخصاً منعزلاً ضمن حدود فيزيولوجية. وكنت منعزلة كل الإنعزال، ففيزيولوجيتي صعدت، بالنسبة لي، كيف أقول؟ صعدت إلى رأسي، فتبع ذلك أن الرجال، عندما رأوني لعوباً جداً، محبة للتعري، متسرعة في إبراز مؤهلاتي الجمانية الاستثنائية، ظنوا أني أتمتع بمزاج لاهب في حين أني أميل إلى الحكمة وأني باردة بما فيه الكفاية. هذا هو السبب الذي من أجله امتنع الرجال عن طلب الزواج مني رغم أنهم كانوا يجرون خلفي ككلاب يشتمّون رائحة أنثى ملتهبة. مزاج ثقيل أو خفيف وتبعة لتربيتي التقليدية القائمة على عبادة الأسرة.

فتحت الصنبور، خلعت قميصي ووقفت تحت الماء الغالي، بينما كنت أدور وأدور بحركات خرقاء تحت الماء الذي يغمرني لكني جميلة، نما لدي انطباع بأني حيوان أكثر مني إنسان وخلصت إلى التساؤل عن معنى أن يكون المرء امرأة جدا .هذا الفرض اليومي في أن أمضي ساعتين في الحمام قبل أن أعتبر نفسي جاهزة كان يوحي بفكرة أن يكون المرء "امرأة جدا " لا يدل على فرد وحيد بل على العكس، يدل على مجموعة من الصفات الأنثوية تتمتع رغم أنها تعيش في ذكاء كامل على الآخرين، باستقبال ملحوظ وقدير. الأمر الذي يستوجب ضمن أشياء أخرى وجود ضياع كبير في الزمن – ظاهرة أنثوية نوعية – من حيث أن هذه الصفات جميعاً تتطلب كل منها علاجاً خاصاً.

نعم، إني أهتم بجسمي بدقة وانتباه اهتمام جندي بسلاحه. أحياناً ومن باب تزجية الوقت وخلال هذه الساعات غير المضحكة التي أخصصها لجسمي أحاول حساب الزمن الذي يضيع بهذه الطريقة بعد عشرين عاما من الحياة ؛ منذ مراهقتي العدائية وحتى أتجاوز سن النضج أي زمن تفتح الجسم الأنثوي - أتساءل كم من الساعات والأيام والأسابيع والأشهر سأكون قد خصصت لشعري وفمي وعيني وأظافري ونهديَّ وبطني وظهري وساقيّ.

كم سأمضي من الساعات والأيام والأشهر داخل البيت وخارجه، عند المدلكين وأرباب التجميل؟ في النهاية وفي تحليل أخير، أعترف أن الخطأ خطأي. لا أحد ولا حتى أهلي الذين يتمنون كل التمني التخلص مني، لن يمنعوني من أن أفعل ككل الفتيات المعارضات، كنزة وبنطال وضربة اسفنج على الوجه والأيدي واذهبي !! نعم ولكن إلى أين؟ لا يمكن تحاشيه ودائما باتجاه الزوج.

في البداية، كانت حركاتي بطيئة، عقلانية وكلما مرت الساعات واقترب الظهر تصبح جنونية اكثر فأكثر، تصبح مرعوبة تقريبا. أجري من غرفتي إلى الحمام ومن الحمام إلى غرفتي، أمرر القلم الأسود على حاجبي، أرتدي بنطالاً لاصقاً، أغسل أسناني، أربط حمالة صدري، أضبط شفتي، أربط بطني بمشد مطاطي. الوقت الذي كسبته في حركاتي المحمومة أفقده الآن في تأخري في اختيار البلوزة والتنورة اللتين توافقان الفكرة التي وضعتها في أن بلوزتي وتنورتي يجب أن تتفقا وذوق الرجل الذي سيدق بابي بعد عدة دقائق. وقفت بلا قرار وبلا حراك محاطة بثيابي الداخلية، أنا هنا، في بحث دائم بين التنانير والبلوزات المبعثرة في

الغرفة. كنت أشبه بمحارب ما زال في ساحة المعركة لكنه وحيد، وحيد تماما بين الجثث. ماذا اختار؟ مستحيل أن أقرر والوقت يمر.

هو ذا صوت الباب، خافت لكنه لجوج. أمينة للتربية التي تلقيتها والتي تريدني مغوية أكثر مما يتطلب طبعي الذي يريدني متحفظة، سارعت إلى فتح الباب كما أنا، نصف عارية، اعتذرت ضاحكة ودعوته إلى الجلوس في الصالون وأنا أقول إني سأعود حالا.

إنه شاب وسيم أسمر البشرة. يصغرني بخمس سنوات لكن المفاجأة التي أصابته رسمت على وجهه سلسلة من الغضون التي أبدته أكثر نضجاً وربما بدا شيخاً صنعت شيخوخته الحيرة والقلق.

دخل إلى الصالون وهو يتمتم أي كلام وجريت إلى غرفتي لأرتدي ملابسي. عدت إليه صافية المزاج، منشرحة النفس مبتسمة. كان مجلسه بجانب نبتة في أصيص. تجربة لا شعورية كان ينتزع وريقات النبتة وريقة إثر أخرى. جلست بجانبه وقلت بكل تهذيب: "دع نبتتي المسكينة بسلام... أعتقد أنك أتيت لتكلمني عن الحياة التي سنمضيها عندما نصبح زوجين... ها أنا ذا أسمعك" جفل ثم أخذ يتأتئ. آه، نعم، لقد نسيت أن أخبركم بأن له، بالاضافة إلى غضونه، حبسة في لسانه. كان يتلعثم في كل مقطع وهو يجيبني آلياً كأنه يسمعني درساً حفظه عن ظهر قلب: "سوف نسكن في الريف، في فيللتي حيث تعيش أيضا أمي وأختي. سوف نحيا حياة بسيطة، حياة نظيفة. أنا سأهتم بمزرعتي وأدير أملاكي وأبيع محاصيلي ومنتجات مزارعي ومواشيّ وأذهب إلى الصيد.... وأنتِ ستبقين في البيت. ستهتمين بالأطفال. إنها حياة بسيطة ونظيفة كحياة أبي وجدي وكل أجدادي منذ أجيال".

"ولكن! ألن يكون لنا أيضا بيت في المدينة؟"

"لا، ماذا سنفعل به؟ سنعيش في الريف وإذا كان لنا عمل في المدينة سوف ننزل في فندق."

"لقد فهمت. سوف نعيش في الريف وأنا سأهتم بالبيت والأطفال ولكن هل أنت واثق من أن سيكون لك أطفال."

"طبعا واثق. نحن أغنياء. ونستطيع أن نسمح لأنفسنا بإنجاب المزيد من الأطفال. بقدر ما نريد. وأنا أريدهم كثراً."

"كم؟ "

"على الأقل ستة أو ثمانية أو عشرة. أريد أسرة كثيرة العدد. إذا لم يكن عددهم كبيراً، فما فائدتهم؟"

"إني أطرح السؤال عينه على نفسي. ولكن هل فكرت في أني أنا من سينجب لك هؤلاء الأطفال ؟"

فاجأته. نظر إليّ لعدة ثوان. يبدو الآن شابا وسيما، دقيق الملامح، ناعما. لكن تجعيدة جعلته يجحظ عينه ويدفع فكه إلى الأمام. رجل شنيع يجلس أمامي بسحنته القاسية والضعيفة في آن معا. قال متأتئاً: "طالما قلت لي: إنك تحبين الأطفال"

"نعم، أحب أطفال الآخرين، فأنا ليس لدي أطفال. والآن إذا أحببت سنحسبها: عمري تسعة وعشرون عاما، ثلاثون تقريبا. ثمانية أطفال موزعين على عشرة أعوام هذا يعني أني سأصبح في الأربعين من عمري مع ثمانية اطفال بين عمر السنة وتسع سنوات. فقد سمعتهم يقولون إن الأطفال بحاجة إلى أمهم حتى سن البلوغ، وهذا يعني أني عندما أصبح في الخمسين يجب عليّ أن اعتني بالصغير الذي لا يكاد يبلغ العاشرة من عمره. في الخمسين سأصبح مثل أمك الآن، امرأة عجوزاً ذات تربية صالحة تتمتع

بعادات أرسطوقراطية وبملامح ناعمة وشعر أشيب. وأنت أيضا ستصبح رجلاً ناضجاًولكن سيكون لك مزارعك وصيدك وإدارة ممتلكاتك ولكن أنا؟ إني سوف أشبه كلبة طيبة ولدّت الكثير من الجراء ويحرسها الناس لأنها عجوز والناس معتادون على رؤيتها.أنا محقة، أليس كذلك ؟"

"لا، أبدا، أنتِ كائن بشري ولست حيوانا."

"أية نكتة! لقد تربيت لأصبح نوعاً من الحيوان. الخطأ ليس خطأك. الأمر هكذا. لكنك تفكر مثل أولئك الذين ربوني، مثل أهلي، وتريدني مع كثير من المنطق وقليل من العاطفة أن أقوم تماماً بالذي تربيت من أجله. حسن، ولكن بمجرد أني أحدثك كما أحدثك يثبت أن مربيّ أخطؤوا. كانوا يريدون أن أصبح... كيف أقول؟ حيواناً ولوداً لكنهم إزاء كائن بشري ولأنه كائن بشري فهو لا يقبل الحياة التي يملونها عليه. والآن اسمعني جيدا..."

قاطعني بعناد، عناد وقلق شخص يخاف أن يكون مهزوما: "اعترف لك إن حياتنا ستكون كما أخبرتك وإلا فلا فائدة من أن نكلف أنفسنا عناء الكلام."

"لا يجب أن نتجشم عناء الكلام. لقد لاحظت أنك استخدمت عدة مرات لفظة "حياة نظيفة" وهاتان الكلمتان لهما دلالة خاصة عندما تقالان من فم شخص مثلك".

"أي شخص أكون أنا؟"

"أنت عصابي من الدرجة الأول.ى لا تقل لا. انظر إلى نفسك في المرآة. انظر إلى هذه الغضون التي تشوّه وجهك. استمع إلى نفسك وأنت تتكلم، اسمع التأتأة التي تقطع جملك عند كل ثلاث كلمات. أنا لا أعرف

أمك ولا أخاك ولكن حسب ما قلت لي فهمت أنهما أكثر عصابية منك. إذا عندما تأتي لتحدثني عن "حياة نظيفة" أفكر بأنك تقصد علاجاً يشفيك من عصابك. هذا كل ما في الأمر. أنا وجمالي والحياة في الريف والأطفال الواحد تلو الآخر وشعري الأشيب مستقبلاً وكل ما تبقى لن نكون بالنسبة لك إلا أقراصاً تبتلعها لمجرد أن الطبيب وصفها لك دون أن تعرف ما تحويه. وأنت، تأمل، لغبائك، أنها ستكون نافعة لك. لكن طبيبك، كائناً من كان، لا يفهم شيئاً عن مرضك. وهذه الأقراص المسماة "الحياة النظيفة" لن تنفعك في شيء. سوف تبتلعها وسوف يزداد مرضك رغم أطفالك الثمانية وزوجتك التي ستلدهم لك لتسرك."

قلت له هذا الكلام الذي لم يقله له أحد من قبل والدليل أن وجهه لاح شنيعاً تعلوه الغضون التي ألقت عليه بين وقت وآخر لمعاناً قلقاً كبروق تجتاز سماء عاصفة. قال بعد ذلك: "إذا، برأيك، ماالذي سينفعني؟"

أجبته بهدوء وانا أبتسم: "اسمع، ربما أحبك حباً كبيراً، على كل حال إني أكن لك نوعاً من الاحترام ولكونك عصابياً حقيقياً فإنك لم تتصرف كالآخرين. لقد عرفت كيف تذهب مباشرة. إلى ما وراء مظهري كامرأة لا تجيد إلا تعرية جسمها. فهمت أني مختلفة عما أبدو. وبدلاً من أن تقوم بما يسمونه "مغازلت"" رأيت أن تقترح عليّ شيئا جدياً. وللأسف فإن "الحياة النظيفة" ليست شيئاً جدياً."

"ما هو الشيء الجدي؟"

ابتسمت ثم أجبت بنعومة: "ربما يكون العكس. ربما تكون الحياة غير "النظيفة"".

"ماذا تعنين بالحياة "غير النظيفة"؟"

"قل لي أولا ماذا تعني لك كلمة "نظيفـة" ولكـن لا تقـل أنهـا تعـني الحياة في الريف وإنجاب ثمانية أطفال وزوجة عجوزاً... هذا غير صحيـح ولكن عندما ستشرح لي المعنى العميق لكلمـة "نظيفـة" سـأقول مـا أعـني بكلمة "غير نظيفة"."

"إذاً، إذا عشنا ما تسمينه حياة غير نظيفة فهل تتزوجينني آنئذ؟"

"فورا، فورا، فورا"

صوت البحر

أبي يضربني وخصوصا أثناء الطعام، على الطاولة، المكان المخصص للخلافات العائلية. يصفعني، ليس لأني أعارضه، بل على الأخص لأني أعارضه بحق وهو لا يريد أن يعترف به.

أبي أرمل وأنا وحيدته. كنا نعيش وحيدين خارج التعقيدات المتوسطة لعائلة حقيقية. وقد أطلقنا، نحن الإثنين، العنان لأحاسيسنا وعواطفنا دون أن تحدها حدود. أنا اطلقت العنان للكراهية وهو للشهوانية. يا إلهي كم هو كائن شبق؟ آه أنه يخفي شبقه! لا، بل إنه شهواني علناً وبلا أدنى شعور بالحياء. عمره ناهز الستين ومازال يستقدم فتيات الهاتف إلى شقتنا (أراقب قدومهن عبر شق في باب غرفتي أو أني أختبئ كما في هذه الأيام). يعتدي على شرف خادماتنا حتى يضع أيديهن في مكان ما أثناء إعداد المائدة. يحاول التحرش بصديقاتي، إذ يسارع إلى فتح الباب عندما يأتين إلى زيارتي. ليس لديّ ما أسجله ضد الجنس.ماذا تتخيلون؟ ولكن بالمقابل، إني ضد الجنس عندما يسطو على عقول الناس. أبي مسمم بالشهوانية كما يسمم الكحول الناس. وأبي يتحلى بشيء، يتحلى به السكير، وهو طيف أحمر في أسفل جبهته وعلى خديه الضخمين وأنفه

المليء بالفقاعات وذقنه المستدير كدورق. هذا الرجل فوق الشهواني كاذب أيضاً. يكذب بوقاحة لا تصدق وعندما أكذّبه فإنه لا يتورع عن ضربي، كما أسلفت، بيده الحمراء الغليظة والقصيرة والمزينة بخاتم ضخم عليه شعار النبالة (آه نعم، إنه يتمسك كثيراً بنبالة ريفية مضحكة وغامضة). يناولني صفعة تؤلمني أشد الإيلام وتذلني. ويضاف إلى ألم الصفعة، الألم الحاد الذي يحدثه الخاتم. مع ذلك لا أبكي ولا أغادر المكان. أحني رأسي على طبقي وأتابع كلامي عما أفكر فيه، ربما بخبث أكثر. عند ذلك ولكونه حساس يبدأ بذرف الدموع ويتمتم أنه يحبني ويسألني عن مآخذي عليه... إنه يثير شفقتي لكن هذه الشفقة لا تفعل سوى أنها تجعلني متحجرة القلب فأجيبه: "مآخذي أني لا أستطيع أن أتحملك لأنك خنزير وإنك مصدر عاري."

كانت النتيجة الرئيسية لهذه العلاقات المحزنة بيني وبين أبي أن الشبان الذين من عمري لم يُقبلوا عليّ في حين أن الرجال الناضجين وحتى المسنين طالما أثاروا إعجابي. طبعا أنا لا أقصد ميولاً هي مجال عمل المحللين النفسيين، فالميل عندي واع. أعرف تمام المعرفة أني أفضل الرجال المسنين نوعاً ما لأني أجد فيهم الأب الذي ينقصني. قد يعترض أحدكم ويقول إنه ليس من الضروري النوم مع رجل يقوم مقام الأب وإن الصداقة يجب أن تكفي. طيب، لا أعتقد ذلك، على الأقل فيما يخصني. العلاقة الوحيدة التي يمكنها أن تحل محل علاقة الأبوة هي العلاقة الجنسية، أما الصداقة فإنها تبقى شيئاً آخر مهما كانت عميقة، تبقى شيئاً مصطنعاً إلى ما لا نهاية وأكثر من العلاقة بين الأب وابنته. من ناحية أخرى، ليست العلاقة بين الأب وابنته دائماً علاقة صداقة كما يظن كثير من الآباء والبنات.

انتهينا، لن أسهب في الكلام عنها بعد الآن. بعد ثلاث أو أربع قصص افتتان برجال كان مقدراً أن يكونوا لي أباً (سرعان ما اكتشفت أنهم غير قادرين على ذلك) وقعتُ أخيراً صريعة حب أحد الرجال.

كان قد بدا من كل النواحي موافقاً للفكرة التي آمنت بها طيلة السنوات الأخيرة عن الأبوة.

إنه رحل أعمال، شخص يتعامل، كما يقولون، بالأمور الاقتصادية. كان سيء السمعة، عديم الوجدان، متآمراً. كان مضحكاً إلى أبعد حدود الاضحاك، جسمانياً (كان طويل القامة، نحيلاً، متطاول الوجه، قاسي الملامح وكأنه قُدَّ من خشب عتيق). خلقياً: كانت صفة واحدة تكفي لوصف علاقاته على الأخص معي: لقد كان رجلاً زاهداً.

الناس جميعاً سمعوا بالزهد في الدين ولكن يبدو أنه يوجد زهد في مجالات أخرى أقل روحية من الدين لكنها تشبهه في المنع. ورغم أن القول في ذلك يبدو متناقضاً ومضحكاً فقد كان هذا الرحل زاهداً في المال.

لم أفهم أبداً إن كان التحكم المطلق الذي يفرضه على أحاسيسه كان عائداً إلى سنه أو إلى تجربته أو إلى النظام القاسي الذي يفرضه على نفسه لكي يكرس جهده كلياً لأعماله. ربما الثلاثة معاً. الشيء الذي كنت واثقة منه هو أن حبه لي كان بعيداً وموضوعياً وثاقباً. الأمر صعب التفسير: ففي كل مرة ينظر إلي ينمو لدي انطباع بأنه يراني تماماً كما أنا دون أن يضفي عليَّ شيئاً من المثالية ودون أن يجملني كما يفعل كل العشاق عادة. وهذا الأمر لم يمنعه من أن يعبر عن حاجته إليّ، فقد اقترح عليّ عدة مرات أن أهجر أبي لأعيش معه. ولكني كنت أعلم، في الوقت نفسه، أني لا أخطر بباله ولو للحظة واحدة عندما لا أكون موجودة أمامه. كان يحبني، هذا مؤكد، لكن حبه ممتزج بالواقعية والعدائية واللامبالاة لرجل خبرَ كل شيء وهو يعرف أنه سيعيش من جديد – ربما مع بعض التغيير – ما كان قد عاشه ورآه من قبل.

عديم الوجدان، نصّاب، مقامر. ذلكم هو عشيقي. ذات يوم غامر في مضاربة في منتهى الخطورة فأفلس. وبما أنه مشهور جداً فقد علمت بالكارثة حتى قبل أن يُطلعني عليها وأنا أقرأ تحت عنوان "اقتصاد" في

إحدى الجرائد اليومية. هرعت إليه لأجده كما هو دائماً بعيداً، هادئاً، بارداً ولكن بشكل غير طبيعي ولأول مرة.

حزم حقائبه، ظننت في البدائة أنه سيهرب بدوني. طمأنني بسرعة قائلاً إن اللحظة قاسية وأنه ينوي أن يبدأ من جديد وبسرعة وبانتظار ذلك اقترح عليّ أن أقوم معه برحلة. وهكذا ستكون عنده امكانية التفكير والاعداد لعودته. تخيلت مباشرة مكاناً لقضاء العطلة مثل كابري أو الشاطئ اللازوردي ولكن ما إن وقع بصري مصادفة على بطاقتي الطائرة الموضوعتين على الطاولة والمؤشرتين "تاهيت"" حتى فهمت.

ودعت أبي الحقيقي حسب الدم وانسحبت مع أبي الوهمي حسب الجنس. في الطائرة، جلسنا متجاورين، هو برأسه الجميل، رأس قديس المضاربة في البورصة، رأس مستقيم وذكي. وأنا منحشرة به، منقطعة إليه طيلة ساعات الطيران الطويلة والمضنية. نتناول معا وجبات الطائرة، وننام معاً تحت غطاء الطائرة، وننظر معاً إلى الغيوم الكبيرة التي تنقلنا فوقها الطائرة بسرعة فائقة إلى تاهيتي.

كنت أحبه. لم أحبه في حياتي كما في تلك اللحظات. وأدركت أن من الأسباب التي ضاعفت حبي له هو أنه يحافظ على برودته تجاه الكارثة التي كان يعيشها. طالما حلمت بأن يكون لي أب مثله وها قد حصلت عليه.

وصلنا إلى تاهيتي صباحاً. ماكدنا نخرج من المطار حتى أحاطت بنا التاهيتيات اللواتي أتين ليرقبن قدوم السياح ومغادرتهم. أحطن عنقينا بعقود من الأزهار. كنت محشورة به، سعيدة كما لو أن النسوة أعددن هذه الأزهار خصيصاً لنا، رغم أني أعرف أن السياح جميعاً يملكون الحق فيها... ذهبنا لنقيم في فندق على شاطئ البحر مكون من أكواخ على الطراز البولينيزي، غائض بين الأزهار والأشجار الأستوائية الكبيرة. وبدأنا نعيش حياة العشاق الهادئة.

في الصباح، كنا نذهب للسباحة في البحر الذي يحيط بالجزيرة. بعد الظهر، كنا نقوم بنزهات في السيارة ونتوقف في الأماكن الأكثر جمالاً. الشيء الذي كنت أفضله على أي شيء آخر هو أن أتمدد على الرمال لكي أسمع هدير الأمواج الأبدي والدائم، عندما تتكسر على الرصيف المرجاني هناك حيث ينتهي البحر.

في البداية، بدا لي الصوت بالكاد مسموعاً، وحيد النأمة، مصنوعاً من علامة وحيدة وعميقة، يتكرر إلى ما لا نهاية. فيما بعد، صرت أسمعه طيلة النهار وبدأت أسمع علامات أخرى وأصواتاً متناوبة، ورغم أنها كانت تتكرر باستمرار كانت تشكل كلمة عندما تتشابه. نعم، ولكن أية كلمة (طفقت أفكر وبدا لي أنها كلمة "حب". كان البحر بصوته الغامض والمقنع والطاغي يكرر هذه الكلمة الوحيدة منذ الأزل وكنت الوحيدة في العالم كله التي اكتشفت هذه الكلمة.

إني أروي هذه الأشياء فقط لأعطي فكرة عن سعادتي. كنت سعيدة لدرجة أني ذات يوم انسقت تماماً للمسرَّة وقلت لصديقي الذي كان يجلس بجانبي صامتاً كعادته أني أسمع في هدير الأمواج، أسمع كلمة، كلمة واحدة، وقلت تلك الكلمة. بالكاد ابتسم بطريقته الباردة والسمحة ثم قال أنه يريد، هو أيضا، أن يسمع هدير الأمواج ليرى إن كان سيكتشف كلمة. سرعان ما اتخذ وجهه التعبير المتنبه لشخص يصيخ السمع بكل جوارحه. قال لي بعد وقت قصير إن الأمواج تلفظ كلمة مختلفة عن الكلمة التي قلتها. أية كلمة؟ هز رأسه ثم أجاب: "مختلف".

عدت إلى سماع المحيط وهو يردد هذه الكلمة برتابة قاتلة تعود إلى ما قبل التاريخ. عند ذاك نهض وهو يقول إنه ذاهب ليهتف لبابيت ليطلب السيارة التي سنستخدمها بعد الظهر في نزهتنا.

لابد أن غفاءتي طالت حوالي نصف ساعة عندما أحسست بشخص يهزني من ذراعي، فاستيقظت لأرى خادماً تاهيتياً منحنياً عليَّ وهو

يبتسم (هؤلاء الناس يبتسمون لأي كلمة يقولونها)، أخبرني أن صديقي انتحر للتو: اطلق رصاصة إلى قلبه عندما كان في مقصورة الهاتف وخر صريعاً على الأرض تحت الجهاز.

بعد الزمن عدت إلى إيطاليا حيث استعدت حياتي مع أبي الحقيقي. أصبحت أكثر نعومة وتفهماً. وأعتقد أني لن أبحث عن أب آخر، إذ لا يمكن أن يكون للمرء أكثر من أب واحد في وقت واحد. والأب الذي وجدته بقي هناك في مقبرة تاهيتي. ربما، أقول ربما، انتهي بالزواج من شاب من عمري، يدَّعي أنه يحبني، يحبني! ليس المهم أن يكون الإنسان محبوباً، بل المهم أن يحب. وأنا، سوف أبقى طيلة حياتي ممتنة لزاهدي في المال لأنه كان محبوباً من قِبَلي. ومن يعلم، دون أن يحبني.

ما أريد أن أعرفه هو تلك الكلمة المختلفة عن كلمتي والتي سمعها في هدير الأمواج. أو بالأحرى أريد ذلك ولا أريده. إنها بكل تأكيد، كلمة رهيبة لدرجة أنه، عندما سمعها، لم يبق له إلا الإنتحار.

مجايلتي

صعدت إلى سيارتي. إنها درة في الكمال التقني والفخامة، صغيرة مثلي. لكي أقترب من مفتاح التماس قدمت يدي الطويلة ذات الأصابع البارزة عظامها والمثقلة بخواتم كبيرة. وأيضا لكي لا أترك عادة قديمة دأبت عليها. ألقيت نظرة خاطفة إلى المرآة الصغيرة الموضوعة على واقي الصدمات، وجهي متطاول جداً، أحمله عموماً إلى الأمام، جلدي كثير الزينة، جاف. ذقني مدبب. عيناي زرقاوان لامعتان. أنفي مستقيم، أفطس قليلاً. فمي أحمر يحتفظ بطية استياء على الشفتين الرخوتين. على خديَّ النحيلين والمحرمين ترسم خصلتان سوداوان شكل فاصلتين لتكشفا أذنيَّ الكبيرتين والغضروفتين كأذني قردة عجوز.

ابتسم لنفسي، فقط لأكتشف الأثر الذي تتركه ابتسامتي في نفسي، اثراً ملطّفاً: ابتسامتي عدوانية لكنها مع ذلك بشوشة ومغرمة بلا أدنى شك. للأسف لا تتلائم. أسناني المستعارة الجديدة تماما والشديدة البياض مع لون وجهي الكامد والمنعدم البريق. ألقيت برأسي إلى الخلف دون أن

أترك المقود. أوتار رقبتي المشدودة كأوتار كمان مغطاة بجلد مغضن يلمع في مكان ويكمد في مكان آخر بما لا يقبل تفسيراً. وجسمي الآن؟ أخفضت بصري قليلاً وتأكدت من جديد تناقض نحولي الذي يمكن أن يجعلني فتاة في الخامسة عشرة من عمرها من أن يجعلني في الخمسين كما أنا الآن. قميصي المفتوح الأزرار واسعاً يظهر نهديَّ الصغيرين المتباعدين عن بعضهما كنهدي مراهقة. بنطالي اللاصق الذي يغطي تصلب ساقيَّ قليلتي اللحم، يسمح لأي مار بأن يحلم بنعمة الصبا ورشاقته. عندما يُرى ظهري من بعيد في الظلام يمكن أن اعتبر فتاة صغيرة لمّا تبلغ بعد نضجها. إني لا أكذب، والدليل أني غالباً ما ألاقي عندما أمشي في الشارع رجلاً يطلق عليَّ مدائح غبية ما يلبث أن يندم عليها عندما ألتفت لأصرخ في وجهه: "تافه! ألا ترى أني يمكن أن أكون في سن أمك؟"

هي ذي محطة الوقود. العامل الشاب وسيم أشقر الشعر بجعده، له جسم سباح بادي العضلات، شعره مذهّب ويدعى روجيرو. إنه يعرفني، فهو عامل "ي" وأعني بذلك انه هو الذي يملأ سيارتي عادة. يبتسم لي ويسألني بلهجته الغنائية إن كان عليه أن يملأ الخزان. يراقب العداد بإحدى عينيه وينظر إليَّ بالأخرى نظرة إعجاب لا أستطيع فهمها. يعلق الأنبوب ويناولني المفتاح ثم يمسك باسفنجة كبيرة فأرى ساعداً ضخماً يمررها على واقي الصدمات. يبتسم لي وهو يمسح ويغسل. أرد على ابتساماته التي تخيفني نوعاً ما وأنا أضغط ضغطة خفيفة على شفتيَّ المتباعدتين قليلاً تباعد لطف. في اللحظة نفسها أحس بنفسي مغزوة بيأس غريب وعنيف. وعندما أدفع ثمن الوقود أدرك أني أقوم، بالرغم مني، بكل ما أستطيع لكي ألمس أصابع هذا الشاب. أقول لنفسي: أحبّذ، نعم أحبّذ أن تجلس في مكاني عجوز، نعم عجوز حقيقية شمطاء ترتعش، عجوز هجرت الحب منذ أكثر من عشرين عاما.

لِمَ هذا الخوف؟ لِمَ هذا اليأس؟ لا أجد أية صعوبة في الاعتراف: منذ ثلاثة أشهر، منذ أن أصبح هذا الشاب يعمل في المحطة وأنا أفكر فيه. لا

أحبه، ولست هائمة به، بل سأقول: على الأكثر أنا مسكونةٌ ربما باحتمال حتمي قد لا يحدث أبداً ولن يحدث أبداً، إنني متأكدة لكن حياتي كلها ترنو إلى هذا الاحتمال. أقول إن هذا الاحتمال لن يحدث أبدا ولكن يجب أن يحدث حسب منطق الأشياء. هذا الاحتمال الحتمي يجعلني أتألم أكثر مما يجعلني مجنونة أهوائي. نعم، لأن الهوى قد يجعلني أنسى عمري لكن هذا الاحتمال يجعلني اتذكره.

كالعادة، أعطيت العامل بخشيشاً زائداً بعض الشيء وقلت: "إلى اللقاء يا روجيرو" ثم انطلقت.

أنا الآن أقود دون أن أفكر في شيء. ذلك بكل تأكيد، لأن المرأة التي أنا ذاهبة إليها والشخص الذي سأتحدث عنه اضطرني كثيراً إلى المبالغة في التفكير هذه الأيام.

تلك هي الطريق الصاعدة والمتعرجة والضيقة. ذلك هو البيت الرائع الذي تسكنه تلك المرأة. مقابل هذا البيت لم أستطع الامتناع من أن أقول لنفسي أن ابني يأتي إلى هنا كل يوم. وهنا، إذا سارت الأمور كما يرغب، سوف يسكن مع امرأته. لماذا يجب أن اعارض مشروعاً عقلانياً في الصميم، مشروعاً هو في النهاية لا يعنيني في شيء؟

انسللت إلى المصعد وضغطت على زر الطابق. أثناء الصعود اقتربت من مرآة المصعد ونظرت إلى وجهي نظرة عابرة. أيعقل أن يكون كل شيء قد انتهى بالنسبة لي؟ وإذا لم ينته كل شيء حقاً فإلى أية دناءة يجب أن أنحط لكي :"أمل " لنفترض على سبيل المثال أني من فرط دوراني حول روجيرو وصلت إلى ما أريده معه، ولكن بعد ذلك ما الذي سيحدث؟ لابد أن امرأة عجوزاً طيبة من عامة الشعب ستأتي لتتهمني بأني جلبت مصيبة لابنها، تماما كما سأفعل مع المرأة التي أنا ذاهبة إليها. أو بشكل اقرب إلى التصديق، هل سيجعلني روجيرو أدفع ثمن ملذات حب مكافأ . إذ يجعلني أمرٌ عبر قلق ابتزاز حتمي؟ غير مجد البحث عن

جواب. الناس جميعا يعرفون أن المرء يتوقع كل شيء إلا درجة العذاب ونوعه. توقف المصعد وخرجت.

لم تكن السفرة واسعة. رأيت بابا وحيداً مواربـاً. ترددت لحظة ؛ هل أرن الجرس أم أسأل بصوت عـال إن كان يوجد أحد في الداخل. دخلت كلِصَّة إلى الردهة، في نهاية ممّر صغير رأيت الحمام، كان بابه مفتوحاً. رأيت نافذة ذات كوة وجدارا مغطى بالبورسلان الأخضر الغاتح اللون ومغطساً من المرمر الأخضر الغامق. بدا لي المغطس خالياً، لكن ذراعاً غليظة وبيضاء لامرأة ارتفعت، واستندت يد على قبضة نحاسية مثبتة في الجدار وارتسم رأس خلف الذراع. الشعر أسود طويل وقاس، موزع على خصلات متجمعة تنسدل على الكتفين الضخمين. خرج باقي الجسم من المغطس ببطء فبدا ظهر ملحم ثم قامة ضخمة وعندما وقفت كلياً بدا عكن كبير مربع بشكل غريب.الجسم جسم امرأة من عمري. لكن جسمها مختلف عن جسمي، فقد أثقلته السنون بدلاً من أن تخففه. أبيض، بياضه يثير الاستغراب، كثير الدهن، تلون بالأخضر، وسط كل هذا الاخضرار الذي يحيط به من جدران ومغطس. في هذه اللحظة شرعت المرأة في حركة، إنها ستلتفت. أعتقد أني نظرت إليها بما فيه الكفاية لكي أستطيع تكوين فكرة محددة عنها. دون أن أنتظر أو أرفع صوتي سألتها: "هل أستطيع الدخول"؟

أجابت: "أهذا أنت يا إميليو؟؟ فقلت مباشرة: "بل أنا أم إميليو" التفتت بحركة مباغتة جداً حتى كادت أن تفقد توازنها، عند ذاك رأيتها من الأمام، صدرها وبطنها بضخامة ظهرها. بعد لحظة صُفِقَ الباب في وجهي وسمعت صوتها:

"اغربي عن وجهي، اغربي عن وجهي مباشرة، ليس لدي أي مبرر لاستقبالك، لقد قلت لك سابقا عبر الهاتف أني لا أرغب في رؤيتك، فكيف تملكين الجرأة لتدخلي بيتي فجأة؟".

اقتربت وأسندت وجهي إلى إطار الباب وصرخت أنا أيضا:

"أتيت لأن مستقبل ابني يهمني كل الأهمية."

"حسنٌ، أنا لا أجد ذاك المستقبل مهما."

" إذا كان ولدي لا يهمك فلماذا تقبلين إذا بفكرة الزواج المضحكة؟"

"هو الذي يريد الزواج وهو الذي يعذبني ولا يدعني بسلام. اغربي عن وجهي".

" إن امرأة في سنك يجب أن تفكر مرتين قبل أن تتزوج شاباً في الثامنة عشرة من عمره. أنا من جيلك ويمكنني أن أفهمك لا أن أوافقك، ثمة أشياء يجب ألا نقوم بها بكل بساطة".

"آه، لا نقوم بها! لماذا يجب ألا نقوم بها؟ لماذا لا نستطيع القيام بها؟ والآن، هذا يكفي. هل ستعدينني بذهابك؟"

"ما زلت جميلة ولكن بعد سنوات قليلة ستصبحين عجوزا مثلي، على كل حال سنهرم نحن الاثنتين".

"مهلا... ثمة فارق، أنت ستهرمين مع أسرتك التي تسخر منك أما أنا فسأهرم مع زوج شاب يحبني. إذا، هل ستغادرين؟ نعم أم لا؟"

"من سمح لك أن تتكلمي عن أسرتي؟ ماذا تعرفين عنها؟"

"نعم. إن أسرتك تسخر منك. أنت مصدر رعب في المنزل. ما إن تظهرين حتى يهرب الجميع. ماذا تظنين؟ أعرف كل شيء عنك. إميليو يحكي لي كل ما يحدث. أعرف أن لزوجك عشيقة يمضي معها كل لياليه. وأعرف أن ابنتك تخرج منذ الصباح ولا تعود إلا في آخر الليل، فقط لأنها لا تريد أن تبقى معك. وأعرف أنك لا تفعلين شيئا طيلة النهار ولهذا فأنت تخترعين واجبات أمومية، مثلا، هذه الزيارة التي تقومين بها هذا الصباح. ولكن أحداً لا يهتم بما تفعلين. كذا أنت كما حصل في العام الماضي ولكي تجذبي الاهتمام إلى شخصك، تنعزلين في المطبخ وتفتحين الغاز وقد

أسعفوك في الوقت المناسب ونقلوك إلى إحدى المشافي. وأخضعوك لعلاج النوم. وبعد أن عدت إلى البيت بدأت من جديد كما في السابق. والآن وبعد أن أثبت لك أني أعرف كل شيء عنك، تفضلي واخرجي".

"ساحرة! شرسة! حقيرة!"

"وأنت ساحرة وشرسة وحقيرة. اخرجي وإلا استدعيت البواب ليطردك".

خرجت. وقبل كل شيء انتابني احساس بالحاجة إلى إعادة التوازن لموقف مذل وسلبي، بالغ السلبية.

غادرت بسرعة ذاك المنزل غير المضياف. كان المصعد كما تركته. دخلت إليه وضغطت على الزر فبدأ نزوله. اقتربت من المرآة ونظرت إلى نفسي ولكني نظرت هذه المرة بشعور مختلف عن شعوري أثناء صعودي، فقد تفحصت نفسي إذ ذاك بأسى وبنوع من الوسوسة، أما الآن فإني أنظر إلى نفسي بانتباه وأنا أحسب الاحتمالات: في النهاية، أنا لست أسوأ من غيري، حتى من أولئك اللواتي يصغرنني سناً. لم "ينته" شيء بعد بالنسبة لي وربما، من يعلم؟ لن "ينتهي" شيء.

توقف المصعد في الطابق الأرضي. قفزت إلى سيارتي وسرت إلى هدفي مسرعة. في نهاية هذا الإسفلت المحرق والخالي لاحت لي محطة الوقود صغيرة تحت افريزها الزجاجي الأصفر والأحمر. أشعة الظهيرة المحرقة كانت تحيط بها بهالة منتشرة فترتجف الأشكال وسطها وتبتعد كلما اقتربت منها. والشمس المتربعة في كبد السماء بدا لي أن شموساً صغيرة تنفصل عنها لتنزل ببطء وتتمايل في الفضاء.

وهكذا، فجأة ينفجر هذا الغليان كفقاعة صابون. والسطح الزجاجي الذي تربض المحطة تحته يبدو صلباً وحقيقياً على بعد خطوتين عني.

روجيرو منهمك في خدمة أحد الزبـائن وخلـف هـذا الزبـون تقـف سيارة زبون آخر وتنتظر وهـي تدير محركهـا بنعومـة. بهـدوء صففـت سيارتي خلفها. أنا أيضا أنتظر دوري.

الوجه المخبّأ للقمر

أنا اه أتان في امرأة واحدة. وإذا أحببتم: أنا امرأة بوجهين مثلما هو القمر، كذ نا، لي وجه يعرفه الجميع وهو يساوي نفسه دائماً ولي وجه غير معروف ليس فقط من الآخرين بل مني أنا أيضا بشكل ما. وهذا الوجه الآخر غير المعروف يمكنه ألا يكون موجوداً فالأشياء التي يجهلها المرء هي في اقع كأنها غير موجودة. وهذا الوجه.وحتى لو أنني لا أعرفه ولا أتحدث ه لكني "أحس به". إن الإحساس الغامض بوجود وجه آخر غير مرئي و ف عن قذالي، على الجهة المقابلة للوجه الذي يراه الجميع، هذا الإحساس يجعل مني ولكوني في حياتي اليومية مرتبطة كلياً بواجباتي، في الوقت ن ه، كيف أقولها؟ هذا الإحساس يجعل مني امرأة "غير ملتصقة". نع ي "غير ملتصقة". أي إني منفصلة عن الأشياء التي أقوم بها في لحظة قيامي بها. هل رأيتم قطعة أثاث قديمة تنفصل عنها قطعة صغيرة كانت تبدو وهي تشكل جزءً من الكل؟ إذا أمعنتم النظر إليها ترون على سطح الخشب الجاف قشرة رقيقة لامعة، أنها بقايا المادة اللاصقة التي استخدمت سابقا للإصلاح. من يعلم منذ كم من القرون تعرضت قطعة الأثاث لهذا الحادث؟ شخص ما منذ عدة قرون قام ذات يوم بإصلاحها بإلصاق القطع الصغيرة الناقصة التي انفصلت اليوم. يجب إيجاد مادة لاصقة

من نوعية جيدة شبيهة بالمادة القديمة، ولكن أين ستجدونها؟ حسنٌ، أنا، في حياتي اليومية، تلك القطعة الصغيرة من الخشب التي تبدو ملتصقة بقوة بقطعة الأثاث بينما هي في الواقع منفصلة عنها ولا تشكل جزءً منها. أنا غير ملتصقة وواعية لعدم التصاقي. كل يوم بين الساعة الثامنة مساءً والسادسة صباحاً أنا زوجة كاملة، زوجة شابة وجميلة لقاض كهل. ومن الساعة السادسة بعد الظهر وحتى التاسعة والنصف ليلاً أنا زوجة أب كاملة لطفليّ القاضي من زواجه الأول. ومن الساعة الثامنة والنصف صباحاً وحتى الواحدة والنصف من بعد الظهر أنا موظفة مصرف كاملة. لماذا أذكر هذه المواعيد؟ لأنه لا يوجد في حياتي زمن غير زمن الساعة الجدارية. الأوقات الأخرى كلها مستبعدة.

كل يوم أستيقظ في السادسة، أتزين وألبس ثم أوقظ الطفلين وأساعدهما على غسل وجههما، ثم أعد الفطور للجميع. بعد ذلك يخرج زوجي بسيارته، يودع الطفلين في مدرسة الراهبات حيث هما نصف مقيمين ثم يذهب إلى المحكمة. وأذهب أنا إلى المصرف مشيا لأنه قريب من البيت.

في المصرف، أنا جدية وواعية لدرجة أن زملائي يلقبونني Miss dovere (الأنسة واجب). أعمل حتى الواحدة والنصف ثم أعود إلى البيت مشيا. الخادمة تكون قد اشترت ما نحتاجه مستعينة بالقائمة التي أكون قد أعددتها لها في المساء قبل نومي. أذهب إلى المطبخ، أفض العلب، أشعل الغاز وأعد وجبة خفيفة لي ولزوجي الذي ما إن يصل حتى نجلس إلى المائدة. بعد الطعام أغسل الأطباق ثم أرتب المطبخ ثم نذهب إلى غرفة النوم، إنها ساعة الحب، فزوجي يفضل ممارسة الحب في تلك الساعة لأنه يكون تعباً في المساء. في الرابعة يغادر وبعد قليل يصل الطفلان. دون أن أمنح نفسي لحظة واحدة من الراحة، أعد لهما العصرونية وأشاهد معهما التلفزيون ثم أساعدهما على حل وظائفهما. أعشيهما ثم أضعهما في السرير. الثامنة والنصف زوجي من جديد، يجلس ويقرأ الصحيفة. أعود

إلى غرفتي، أرتدي ثوباً لائقـاً وأتجمـل، أسـرح شـعري ثـم نذهـب إمـا إلى مطعم أو إلى الأصدقاء أو إلى السينما. إلا أنها لحظـة انهيـاري ؛ منـذ عـدة سنوات ينقصني يوميا ساعتان من النوم على الأقل، لذا حيثما أكون، سواء على طاولة في مطعم أو علـى مقعـد في السـينما أو في السـيارة فـإني أغفـو قليلا. أتسألونني إن كنت أحب زوجي؟ لنقل إنـي أحبـه كثيرا. علـى أيـة حال ليس لدي الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور.

مع ذلك ورغم حياة الواجب هذه فإني لم ألتصق فعليا بالأشياء الـتي أقوم بها، وأحس بنفسي "غير ملتصقة" طيلة الوقت كما أسلفت وأظـن أني أكّدت أن وجهي الآخر يجهله الجميع وحتى أنا.ليـس هـذا صحيحـا كـل الصحـة: إذا أتقـن المـرء القـراءة فإنـه يسـتطيع أن يقـرأ هـذا الوجـه سحنتي. احكموا على ذلك بأنفسكم وسأصف لكم نفسي: أنـا شـقراء، طويلة القامة، نحيلة القوام، في وجهي شيء جرماني، فيه ما يشبه التماثيل التي نصادفها في الكنائس القوطية. له شكل مثلث قاعدته جبيـني القاسـي والبارز العظام ورأسه ذقني السمين الناعم. لي أنف مسـتقيم وفـم صغير، كلاهما مرسومان بشكل جيد. للأسف، زرقـة عيـني شـاحبة ونظرتهمـا مقلقة وتعبيرهما خاطئ وبارد، يـترصدان عندمـا أقـارن تعبيرهمـا بتعبير حيوان متأهب للعض عند أول فرصة. هاتان العينان تناقضان ما يمكن أن نسميه وجها قاسياً وأرسطوقراطيا.

بالنسبة للحيوان المتأهب للعض، لقد واتته الفرص بعد أربع سـنوات من زواجي.

ذات صباح من صباحـات تشـرين الثـاني كنـت ذاهبـة إلى المكتـب تحت المطر المدرار مما لم يمنعـني مـن الانتبـاه لرجـل يلتقـط بعـض الصـور الفوتوغرافية. كان جالسا في سيارته السـوداء الكبـيرة وقـد أوقفهـا أمـام باب المصرف تماما. تنبهت إليه من بعيد. كان يستخدم آلة تصوير صغيرة جداً، يلصقها بيده على عينه. رأيته يكـرر تلـك الحركـة أربـع مـرات أو

خمس بأناة المجرب الخبير. وعندما كان ينزل الجهاز بدا لي أن نظره كان يتأمل الفراغ. ماذا كان يصور؟ مدخل المصرف بكل تأكيد. كلما اقتربت منه كنت أراه بشكل أفضل. لابد أنه نحيل، ميزت ذلك من ضيق كتفيه. كان عالي الجبين، قصير الأنف، جميل الفم. يذكرني بالصور المحفورة لنابليون وهو شاب.

عندما مررت من جانبه أخفض يده التي تحمل آلة التصوير. لابد أنه كان ينتظر أن أختفي من ساحة رؤيته. لا أدري أية غريزة دفعتني آنذاك إلى أن أغمز بعيني غمزة خفيفة وأنا أنظر إليه، ولكي يبين لي أنه رآني وفهمني هز رأسه من الأسفل إلى الأعلى. اجتزت الشارع بهيئة الواثقة، المتدثرة بواقية المطر الحمراء الغامقة. انضممت إلى بقية زملائي الذين كانوا ينتظرون أمام باب المصرف. عندما التفت كانت السيارة قد اختفت.

بعد ذلك بخمسة عشر يوماً وبينما كنت خارجة من المصرف مشياً لأعود إلى البيت أدركت فجأة أني لا أشارك في الابتهاج العام ولا في الفرح يوم الأحد الذي ينتشر في الشوارع على شكل موجات في لحظة انفراغ المكاتب والمدارس ولحظة يغادرها أولئك المسجونون التعساء هاربين من أكداس الأرقام والكتب المدرسية. أنا لم أكن أشعر بابتهاج أو بفرح، بل كنت أفكر بالطعام الذي سوف أعده وبالأطباق التي سوف أغسلها وبالحب الذي سوف أمارسه. عندما رفعت رأسي فجأة رأيت بجانبي الرجل ذا الصور الفوتوغرافية يلاحقني بسيارته خطوة خطوة. التقت نظرتانا فقاطعني مباشرة وهو يتلفظ بكلام حاد ومثير يستحيل تكراره. بلا تردد، وافقت بإيماءة من رأسي. تجمدت السيارة في مكانها، ففتحت الباب وجلست بجانبه. لم نذهب بعيداً، إلى ضفة نهر التيبر القفراء في تلك الساعة من النهار. ما كدنا نقف حتى ألقى بنفسه عليَّ يعانقني بحركة كأنما كان مخططاً لها من قبل. قلت إنه يشبه بونابرت وهو شاب عندما يكون هادئاً، أما عندما تقسو ملامحه لن أقول أن وجهه يصبح خالياً من السحر، بل يصبح في سوقية رئيس عصابة من أسفل

الدركات. صددته بالتأكيد وأنا أقول له: "لا تلمسني، لدينا الوقت لمثل هذه الأمور، قل لي، بالأحرى، ماذا تريد مني."

أجابني بصوت مصمم: " أنت من أريد"

" لا! أنت لا تريد سواي! إذا لم تكن تريد سواي فهذا يعني أنك لست الفيتيشي الذي أنت هو في الواقع."

" فيتيشي؟ ما معنى فيتيشي؟"

" شخص مثلك، لا يكتفي بحب شخص فقط، بل يحب أيضا الأشياء المرتبطة به، مثلا باب المصرف الذي يعمل فيه."

" لكن متى لاحظت ذلك؟"

" متى؟ منذ أسبوعين، في الساعة الثامنة والنصف صباحا. كم من الصور التقطت في ذاك اليوم؟ لا أقل من عشرين صورة، أليس كذلك؟ "

" إذاً الصور، لا يمكنني أن أخفي عنك شيئا؟ من أنت؟ أأنت الشيطان شخصيا؟"

بكل بساطة، وبهذه الطريقة بدأت قصتنا التي انتهت بملء صفحات الصحف بعناوين كبيرة. لا فائدة من أن أسرد لكم كيف تمت عملية السطو. سطو تقليدي حسب رأي المتابعين. ولكن إذا أحببتم أن تعرفوا المزيد عنه ما عليكم إلا الرجوع إلى الصفحات القضائية لتلك السنة. لن أقول لكم الجانب الهام الذي شغلته فيها فهذا عمل خطير عليَّ، ذلك لأنه بقي مجهولا من الجميع.

بالنسبة لزملائي في المصرف، بقيت الآنسة واجب. الشيء الوحيد الذي أود إضافته هو أن هذا السطو تم عند بداية الظهيرة، عندما يكون المصرف مغلقا في وجه الزبائن ويعمل فيه القليل من الموظفين. كانت الساعة تقارب الرابعة. استطعت الإنسحاب مباشرة بعد أن مارست الحب مع زوجي. كانت لديّ ساعة تقريباً قبل قدوم الطفلين من المدرسة. كان دوري قائماً على أن أجلس خلف مقود السيارة -

المسروقة طبعا – وأن أنتظر في شارع قليل المرور فيه وأن يلحق بي رئيس العصابة وزميله بعد انتهاء العملية.

أتساءل إن كنتم ستصدقونني! تصوروا رغم أن قلبي كان يخفق هلعاً، جعلني التعب، تعبي المعتاد، أنام نوماً لا يقهر، نوماً عميقاً وهادئاً. شاركت في عملية السطو في نومي ولكن على طريقتي... في الحلم، رأيت نفسي مسجونة في الصندوق الحديدي المصفح للمصرف، ثم سمعت رئيس عصابتي يفتح الباب، باب الصندوق فصرخت فرحاً وارتميت بين ذراعيه. في تلك اللحظة من الحلم هز رئيس العصابة ذراعي وهو يهمهم كلاماً بذيئاً بين أسنانه. دون أن أرى شيئاً مما حدث. أدرت محرك السيارة وانسحبنا.

بعد ذلك وخلال ستة أشهر انقطعنا عن التلاقي. هو الذي قرر ذلك. قال: لابد أن الشرطة ستتحرى عن حياة موظفي المصرف جميعاً. اتفقنا أن أذهب للعيش معه بعد نهاية الأشهر الستة وأن تتحول الآنسة واجب إلى "عذراء الرشاش" أو شيء من هذا القبيل وهو اللقب الذي كان زملائي في المصرف سيطلقونه عليّ نظرا لسوء خلقهم المعتاد لو أنهم شكوا بقصتي. عدت إذاً إلى حياتي العادية بين البيت والمصرف.

ولكن! ذات يوم، منذ عهد قريب، وجدت زجاجة الكولونيا فارغة. كان ذلك بعد ظهر اليوم الذي يجب عليّ أن أقود زوجي إلى المطار حيث سيسافر إلى كاغلياري لإنجاز عمل له هناك. رافقته. وفي طريق العودة تذكرت الزجاجة الفارغة فتوقفت في شارع محيط روما أمام محل للعطارة وقد وضع على المحل شارة العطار الباريسي الشهير الذي يصنع الكولونيا المفضلة عندي.

ما إن دخلت إلى المحل حتى أبهرتني آلاف الإنعكاسات اللماعة لعدد من الزجاجات والقوارير من كل نوع مصفوفة على طول الجدران في الخزائن المزججة. مرت عدة ثوان قبل أن أتمكن من رؤية رئيس عصابتي

الذي كان واقفاً خلف طاولة منشغلا بخدمة امرأة ليست شابة وكانت تطلب نوعاً من أحمر الخدود الصعب توفره. كان رئيس عصابتي قد وضع على الطاولة بينه وبين الزبونة آنية صغيرة يفتحها ويضع قليلاً من المستحضر الموجود داخلها على ظاهر يده ثم يمسح النقطة براحة يده الثانية وهو يتكلم بصوت خافت إلى زبونته المنتبهة بهدوء وأناة. كانت تنظر إليه، تتفحصه وتهز رأسها: لا ليس الأحمر ما كانت تود شراءه.

لم يخبرني رئيس العصابة بأنه يمتلك هذا المحل التجاري الرائع. أعرف أنه يعيش مع أمه العجوز وولديه. فقد هجرته زوجته لتسكن في ميلانو مع رجل آخر. سرعان ما عرفت أنه يملك محل العطارة. هذا منذ زمن طويل، ربما منذ عدة سنوات. كان حديثه مع تلك الزبونة من الأحاديث التي لا يمكن لأحد أن يقوم به إذا لم يكن خبيرا في المهنة، إن كمال هذا الحديث المحترف هو بالنسبة لي شيء شبيه لما يحدث عندما يضيء البرق منظرا بكل دقائقه. فهمت بقسوة أني خدِعتُ ، فقد ظننت أن هذا الرجل صقر عجوز وما هو إلا خلد ماكر.

خطرت ببالي فكرة خبيثة: أجريت حساباً وفهمت أن زوجي يعادله لا أكثر ولا أقل. فله أيضا ولدان يجب أن أهتم بهما وهو أيضا سيطلب مني أن أقوم بجميع أعمال البيت. ومن ناحية العمل، بدا لي من الأفضل أن أكون موظفة في مصرف على أن أكون بائعة عطور، حتى لو أني مضطرة للذهاب باكراً للمصرف. يبقى موضوع الحب ؛ في الحقيقة، منذ أن اكتشفت أمر هذا المحل أحسست أني أكثر "عدم التصاق" بالنسبة لرئيس العصابة مما أنا إزاء زوجي. لذا، دون أن أنتظر أن تنهي الزبونة اختيارها من أحمر أحلامها. درت نصف دورة لأخرج، وقبل أن أجتاز الباب أدرت رأسي، كان ينظر إليّ من فوق كتف الزبونة، أشرت له لأقول لا، لم يكن غبيا. لابد أنه فهم لأنه لم يحاول أبدا أن يراني ثانية. من يعلم؟ ربما لا أصلح أن أكون بائعة للعطور.

في النهاية، ما الفارق بين محل للعطور ومصرف؟ لابد أنه خشي أن أرغب، وأنا الميئوس من إصلاحها، في عملية سطو جديدة ولكن على حسابه هذه المرة. ولِمَ لا؟ مع رئيس عصابة حقيقي، أحد أولئك الذين يهاجمون المصارف بحس الجنوح وفي مطلق الأحوال ليس من أجل شراء محل للعطور.

العيوب الجسمية

أنا مرهفة الإحساس، لذا أحس بالقرف أمام هذا العيب الجسمي أو ذاك عندما أكتشفه عند الأشخاص الذين ألقاهم. يجب أن أقول لنفسي إنه من الظلم، بل من الغباء الإحساس بالعداء نحو شخص ما بسبب شكل أنفه. لا حيلة لي في ذلك ومن المستحيل أن أمتنع عنه. وللأسف فإن هذا الإحساس المرهف الصحيح جداً هو في هذه اللحظة في طور الترسب في قعر حياتي الزوجية.

كيف بدأ الأمر؟ هاكم القصة: لمّا يفت على زواجنا عدة أيام حتى جلست في إحدى الزوايا لأرسم في غرفة الجلوس حيث نصبت حامل اللوحات بانتظار أن أشتري مرسما. في الجهة المقابلة، كان زوجي يتلفن لشخص لابد أنه يكبره سناً كما فهمت ويفوقه أهمية بكثير. بينما كان زوجي يتابع حديثه بصوت ناعم ومعسول وممتزج بتلميحات متملقة لعملية نجح محدّثهُ في القيام بها، لاحظت فجأة وبدون سبب وجيه أن سترة زوجي الضيقة جدا والمشقَوقة من جيتين في اسفل الظهر، كانت ترفعها مؤخرة مُطله، لم أنتبه إليها حتى ذلك اليوم. وهي بالإضافة إلى ذلك مؤخرة "ناطقة"، تقوم بحركات منحتني شعوراً مفاجئاً بنوع من القرف العبثي الذي لا مسوغ له. بينما كان يتابع حديثه بدا لي أن إليتيه

كانت تهتزان بالتناوب بطريقة تثير الانتباه بشكل غريب. بعد أن انهى المكالمة بسعادة بادية أتى نحوي ليمسك بيدي ويجرني إلى رقصة مرتجلة. شرح لي بفرحه الغامر أن الشخص الذي كان يكلمه منذ لحظة - وهو يطلق عليه من باب السخرية لقب المعلم - معلق به مستقبلنا ، وأنه يغازله غزلاً مستمراً ومركزاً لكي يحصل على منصب في الخارج يسمح لنا - نحن الاثنين - بحياة رغيدة ...

في الأيام التي تلت، استمر زوجي في حملته لنيل المنصب في الخارج بشكل عقلاني، أقصد حسب مخطط معد مسبقا بالتفصيل. فكل يومين أو ثلاثة أيام يتناول الهاتف ليكيل المدائح من كل نوع للمعلم المزعوم، مدائحه ذكية وسفسطائية حلوٌ سماعها إذا كانت مغطاة بأحكام موضوعية ومتخصصة وهل تصدقون ؟! لا مبالية. كنت أستمع إليه وأنا أتظاهر بالرسم وأوافقه وأعجب به، وفي الوقت نفسه كنت مضطرة لاكتشاف عيب جسمي آخر لم أكن اكتشفته حتى الآن و لم أعرف السبب.

ذات يوم اكتشفت كتفيه الملحمين جدا والنازلين جدا. وفي يوم آخر اكتشفت شعره الموزع في خصلات رفيعة والمدهن وغير النظيف وفي يوم ثالث اكتشفت حبة صفراء قابعة بين خده وأنفه. أمر غريب، أليس كذلك؟ كما يقولون أن كل مديح يكيله زوجي لمعلمه يقابله اكتشاف عيبٍ جديد مقرف.

أخيرا، ذات مساء، دخل إلى الصالون صارخاً: " هذه المرة قضي الأمر. لقد سار مخططي خطوة هائلة إلى الأمام! نحن مدعوون للعشاء في مطعم كبير. كما لو أن الأمر مرسوم."

اعترضت مباشرة بأني لا أملك الفستان المناسب لهذا النوع من الدعوات فاستغرب قائلا: "ماذا تقولين؟ هل نسيت أنك في العشرين من عمرك وأنك في غاية الجمال، نعم، نعم في غاية الجمال. لا فستان للسهرة. تعالي معي وسأضع لك شيئا شخصياً وغريباً." أمسك بيدي

وقادني إلى الغرفة. فتح الخزانة وأخرج زوجاً من بناطيل الجينز الحائلة اللون والمرقعة، وكنزة عديمة الشكل وفولاراً أحمر وقبعة ذات ردة سوداء وقال: "هذا كل ما يلزمنا. كل ما كنت تلبسينه أول مرة رأيتك فيها. هيا البسي هذا البنطال وهذه الكنزة ولكن انزعي حمالة صدرك أولا فنهداك رائعان وعليهما أن يتنفسا ويتحركا بحرية، حسنٌ، والآن، أسدلي على جبينك خصلة من شعرك الأشقر الجميل. أنزلي ردة القبعة على هاتين العينين الجميلتين وهذين الرمشين. مرري قليلا من أحمر الشفاه على فمك الجميل ولا تنسي أبداً شفتك السفلى المنتفخة والمتهدلة كما لو أن دبوراً عضها. أخيرا اعقدي الفولار الأحمر حول عنقك. والآن انظري إلى نفسك في المرآة وقولي لي إذا لم تكوني الأكثر سحراً يعجز عن مقاومته بين أولئك التافهات الصغيرات... أنا واثق من ذلك لأني أعرف ذوقه فيما يخص النساء، ووجودك سيضفي بهجة إلى الحفل كله."

عندما نظرت في المرآة أدركت أن زوجي على حق. ربما بالغ قليلاً في مسألة مقاومة سحري ولكني مثيرة بكل تأكيد. بجسمي، جسم مراهقة لعوب ساقطة بعض الشيء. ولكن قولوا لي لِمَ تبين لي في اللحظة نفسها (ولأول مرة كالعادة) أن اليدين اللتين ترتبان شعري على نقرتي بانتظام جميل هما يدان يعلوهما القار بسبب التعرق ؟

مرت السهرة بسلام. عرفت ذلك من الاحترام والاهتمام الذي أحاطه بهما الرفاق. لابد أن المعلم شخصية هامة. جسميا كان لا بأس به. يذكرني شكله بشيء مبهر وماكر ؛ فم كبير متحرك، أنف صغير، عينان خضراوان، حاجبان كثان أسودان. لم يكن وحيدا، بل رافقته زوجته. جلست بجانبه، كانت امرأة جافة، متقشفة. لم تكن تتكلم، لكن موقعها يدل بوضوح على أنها كانت ترافق زوجها فقط لتنجز واجباً زوجياً.

صوت المعلم يذكرني أيضا بالهر، إذ يموء مواءً هادئاً منغماً. في صوته مجاملة كبيرة. وعندما سمعناه قلنا لأنفسنا أن لا شيء سيمحو هذه المدنية غير العادية ولا حتى الموت.

كنت نهمة جداً وبصراحة، لم أهتم به كل الاهتمام، بل فضلت أن أركز اهتمامي على الأطباق اللذيذة التي قدِمَت وعلى النبيذ القوي الذي صعد إلى رأسي. بدا أن المعلم قدّر نهمي وعندما قدمت التحلية أصر هو بنفسه على أن أتناول كأس البوظة بالفانيليا المغطى بالشوكولاته الساخنة.

بعد العشاء ذهبنا إلى بيته: إنه attico كما تسمى في روما تلك الشقق الجميلة ذات الشرفة التي تطل على القصور القديمة وقباب الكنائس. هناك انساق زوجي كعادته، في حملة شعواء من التملق الرخيص. أما أنا، ربما لأنني افرطت في الأكل والشرب، فقد نمت بكل بساطة.

لابد أن الوقت كان متأخراً جداً عندما أيقظني زوجي ليعود بي إلى المنزل. بينما كان ينزع ملابسه في غرفة النوم، لم يكفّ عن ترداد أن العشاء حقق نجاحاً باهراً وأني حزت على قلب المعلم... ألم ألاحظ كيف كان ينظر إليَّ عندما يكون واثقاً أن زوجته لا تنظر إليه؟ كان زوجي فرحاً لأنه أرغمني على الرقص معه رقصة الباليه الفرحة. وبينما كنت أدور على السجادة كنت أقول لنفسي إن زوجي حاذق جداً فيما يخص عمله. ولكن بينما كان يضغط جسمي العاري بجسمه العاري أيضا اكتشفت عيباً آخر من عيوبه: بطنه، لا، لم يكن ضخماً، لكنه كمؤخرته، يثير الاشمئزاز لرخاوته المفرطة.

في الأيام التي تلت، بدا غزوي لاهتمام المعلم يتقدم باطراد، ففي كل مرة كان يتصل بزوجي لا يكف هذا عن ترداد أني أشغل اهتمام هذه الشخصية الهامة. ومما لا شك فيه أني تركت لديه انطباعاً قوياً. فهو يسأل عن أخباري أكثر فأكثر ويسأل عن الرسم. قال زوجي أن المعلم يملك

مجموعة جميلة من اللوحات الحديثة. وأضاف في أحد الأيام وحتى بعد لحظة من التفكير: "سترين أنه سيشتري منك بعض اللوحات. إني واثق."

ما كنت واثقة منه هو أني لا أملك أية موهبة وأن لوحاتي لا تساوي شيئا. فقد انتقلت من مراهقة لنقل منفلتة أمضتها في علب الليل ومراسم الرسامين. لم يبق منها ملتصقاً بي إلا طيف أمل في أن أصبح رسامة. واليوم، إني أرسم لنفسي فقط لمجرد التسلية وقتل الوقت. وعندما أتى زوجي يحدثني أن المعلم قد يشتري مني لوحة اكتفيت بهز كتفي والنظر إليه. ها أنذا اكتشف أن ساقيه مقوستان. أقصد أن ربلتيه تميلان إلى الخارج في حين أن ركبتيه تتجهان إلى الداخل.

صار زوجي عصبياً أكثر فأكثر، مكفهراً سريع الغضب، حزيناً. ذات صباح وقبل أن يخرج قرر أن يفسر لي سبب هذا التغير في مزاجه: الرياح لا تجري كما يشتهي في موضوع المنصب في الخارج، ثمة صعوبات، يلزم أيضا دفعة صغيرة، من أي نوع؟ قال ببساطة: "دفعة صغيرة". ثم خرج.

بعد خروجه فكرت. أظن أني قلت سابقا أني رأيت من البشر أصنافا منذ أن كنت في الرابعة عشرة (حصلت على عشيقي الأول في ذاك السن) وحتى اليوم حيث بلغت العشرين، إن عملية النوم مع رجل لا تبدو لي صعبة أو ذات أهمية... ثم إن مستقبل زوجي الآن في الميزان. إذاً...

لم يطل ترددي ؛ تعلمون. اتصلت هاتفياً بالمعلم. قلت له إني علمت باهتمامه برسومي. وإني وحيدة في البيت في تلك اللحظة وأنه يستطيع أن يأتي، إذا أحب ، لرؤية لوحاتي، حتى مباشرة. قَبِل دعوتي كما لو أنه صدق حجتي غير المستغربة ولا الساخرة.

كنت أنتظر، ولست أدري لماذا، أن يقول لي كلاماً شخصياً جداً أو مستهلاً جداً، مثل:"آمل ألا نخاطر ونرى زوجك يأتي ونحن في قمة عملنا".

مر الأمر بشكل اعتيادي ما خلا، في اللحظة الأخيرة ولنسمّها الحاسمة إذا أحببتم ؛ انفجرت ضاحكة وأنا أراه محتفظاً بوقاره ومجاملته ومتحفظاً.

سألته ضاحكة: " ألا تنسى أبداً تربيتك الصالحة حتى عندما تمارس الحب؟"

بعد قليل وبينما كان يتأهب للمغادرة ذكّرته بصراحة تامة وبلا تكلف بالمنصب في الخارج الذي يحلم به زوجي. عند ذاك رمقني بنظرة تشبه هر يستيقظ فجأة وهو يسمع ضجيجاً غير عادي. مع ذلك ابتسم وغادر بعد أن ربّت على خدي بنعومة .

بعد عودة زوجي تساءلت إن كنت أخبره بما حصل أم لا. قررت أن لا. ففي نهاية الأمر لم يطلب مني زوجي أن أقوم بما قمت به، بل بادرت من تلقاء نفسي. ثم إن إخباره يشكل خطراً ما، فقد يرفض المنصب من قبيل عزة النفس. إذاً، قد يذهب كل العناء الذي تجشمته بعد هذا الظهر سدى. في النهاية لم أخبره.

بعد أن قبلني قبلة خفيفة على جبيني، تناول الهاتف ككل يوم، إذ يجب أن يتصل بالمعلم. أخذ قلبي يخفق بجنون. تخيلت أن المعلم سيخبره بأنه منحه المنصب العتيد وخفت من شيء واحد: أن يوقظ الخبر السار في نفس زوجي الرغبة الشنيعة في الرقص فرحاً.

لحسن الحظ لم يكن المعلم موجوداً.

بعد ما يقرب من شهر أعلن لي زوجي أنه عُيّن أخيراً في المنصب الذي طالما هفا قلبه إليه. وبينما كان يخبرني كنت أفكر بتربية المعلم

العالية: دفع ولكن مع تأخير لكي يسمح لي بأن أظن، إذا أردت أن أظن، أنه دفع لي الثمن.

أنا اليوم في لندن، في شقة كبيرة وقديمة تقوم اصالتها على أنه لا يوجد فيها أي ممر أو متنفس من أي نوع. فلكي تذهب من غرفة إلى غرفة أخرى عليك أن تجتاز كل الغرف الأخرى في الشقة. ما من طريقة أخرى. بسبب وضع الغرف بهذا الشكل الذي يمنع من العزلة الحقيقية، أصبحت مع زوجي غريبة ؛ فهو يمر بصورة إجبارية من الغرفة التي أكون فيها مما فرض عليّ أن أبذل جهودا أسطورية كيلا أراه لأني، وهذه حماقة مني، أشمئز منه، من رأسه حتى قدميه. ما العمل إذاً ؟

مرة أغوص في الكتاب الذي أقرأه ومرة في الرسم ومرة في الوجبة التي أعدها في المطبخ. وإذا استطعت، أخرج في اللحظة التي يعود فيها إلى البيت.

ذات يوم حبست نفسي في خزانة وفي يوم آخر اختبأت تحت كنبة... طبعا الحب، لم نعد نمارسه. قلت له أني أنتظر طفلاً. ماذا سيحدث عندما يكتشف أني لست حاملاً؟ كيف أفعل لأتخلص من هذا الإشمئزاز الغبي وهذا القرف من عيوبه الجسمية التي هو غير مسؤول عنها بكل تأكيد؟

الاوزة السوداء

أحب الرياضة المجهدة والخطرة والتي تتطلب قوة ومقاومة وجَلَداً. أحب الحياة في الهواء الطلق تحت شمس محرقة أو مع برد يجمّد أطرافي. أحب الطبيعة بفصولها المتساوية الجمال وأحب تبدل الفصول الذي أحسه في دمي قبل أن أراه في الطبيعة.

الشوارع والناس في المدن، المنتفخون والمنطلقون لا يعنون لي شيئاً. أحب الوحدة الصامتة، وغير ذات المعنى، في الريف حيث تعيش الأشياء على حسابها منطوية ومقتضبة منذ الفجر وحتى غياب الشمس دون أن تطلب شيئا من أحد ولا حتى النظر إليها.

هل لاحظتم أن كل شيء في المدينة: النور والمرور والمارة، كلها دعاية وإعلان، أما في الريف، فإن بخورة مريم إذ تنمو في ظل سياج من أشجار الخوخ لا ترى ؛ رغم غناها بالألوان، إلا عندمايحاول الناظر أن يجعل نظره ثاقباً أكثر، يمكنٍ أو عندما يجثو على ركبتيه في غبار الطريق.

أيضا بمناسبة الكلام عن المدينة وهوائها، إن والدي كاتب بالعدل، أرمل وغني وأنا وحيدته ومعبودته. ولكي يرضي ميولي، اشترى لي بيتاً

صغيراً للصيد كان في الماضي ملكاً لأحد الأمراء الرومان. يقع في زاوية موحشة من سهل اللاتيوم، غير بعيد عن قرية سوداء معلقة مع بيوتها القليلة فوق صخرة بركانية.

بعد أن وقّع عقد البيع، قال لي وهو يناولني المفاتيح ويداعب خدي بلطف: "إن الإستثمار الأمثل للمال هو الاستثمار الذي يؤدي إلى إرضاء الذوق الشخصي ويسمح للشخصية بأن تتأكد وللملكات الأكثر حميمية أن تتفتح. أعتبر نفسي محظوظاً لأن لك ذوقاً وطباعاً وميولاً يجب أن تشجَّع وتنمى، فأنت فتاة لطيفة وجميلة وصافية النية. أنت لا تعرفين ماذا قالت منذ أيام عمتك جيوفانا وهي تتكلم عنك: " آه، مارتا! عندما أرى وجهها الجميل والنقي وكتفيها المربعين وساقيها الطويلتين القويتين أحس بالسعادة وآخذ في الأمل بعالم أفضل".

لم يستطع والدي أن يقدم لي سروراً أكثر من أن يقدم لي ذلك البيت، وهو في الواقع فيلا مكونة من طابقين مع واجهة تقليدية جميلة وصف من الأعمدة. هنا أكرس نفسي كلياً للقيام بأعمالي: الطبخ والكنس والبستنة والعناية بالكلاب والدواجن والخيول.

لدي صديقة سويسرية تدعى فرانسواز، تساعدني وترافقني، رقيقة تناسب ذوقي، مفرطة الرومانسية لكنها أمينة ومخلصة. مثلا، الآن، نحن نقوم بحدو الحصان، فرانسواز تمسك به من خطمه وانا أرفع ساقه وأتفحص حافره. العملية تجري على كومة من التراب أمام الفيلا، النضوات والمسامير الجديدة والمطرقة والكماشات وأدوات أخرى كثيرة ملقاة كلها على الأرض، سوداء على الحصى الأبيض.

الجو رمادي والسماء المغطاة بالغيوم تنذر بالمطر الوشيك. إنه طقس خريفي لذيذ. فرانسواز ترتدي مثلي سروال خيل وبوطاً من الجلد الطبيعي وكنزة. كنزتي سوداء وكنزتها زهرية.

كنت أقوم بفحص الحافر بانتباه وفي اللحظة التي مررت فيها يدي لأمسك بالكماشة ظهر الخادم العجوز الذي ورثناه عن المالكين القدامى للفيلا، ظهر على العتبة وقال: "يا صاحبة السعادة، أنت مطلوبة على الهاتف".

كعادتي عندما أكون في الريف أكون بمزاج حسن فأجبته: "لا تدعُني صاحبة السعادة، أنا لست أميرة رومانية، أنا فتاة ككل الفتيات."

اجتزت المسافة التي تفصلنا عن الفيلا عدواً. في الصالون، في الطابق الأرضي، رغم النوافذ الكبيرة كان الظلام مخيماً ولم أر قطعة من قطع الأثاث. في الظلام أخمّن أمكنة الخطوط السوداء للعوارض الموجودة في السقف وقطع الآجر البنيّة على الأرض. كان الهاتف هناك، على مقدمة المدفأة الحجرية. قطعت انفاسي، كان قلبي يخفق وعندما تمكنت من التحكم باضطرابي قلت: "حسن سوف أصل حالاً". وضعت السماعة ثم خرجت عدواً.

كانت فرانسواز ما تزال في مكانها. رأسها الأشقر مخبأ خلف استدارة الحصان، تنظر إليَّ بعينيها الرماديتين الواسعتين. أخبرتها بصوت متصتع الحنق: "تصوري، يجب عليَّ أن أذهب إلى القرية. سأعود بعد ساعتين. سنهتم بأمر الحصان غداً."

ها قد عدنا. فرانسواز تتأهب للقيام بمشهدها الرومانسي الأخلاقي. عرفت ذلك من حيرتها المؤلمة التي علت جبينها العالي والأبيض بمائة غضن صغير :

" أهو؟ "

" نعم، إنه هو "

" لا تذهبي إليه "

" لماذا؟"

" أنت مجرمة ومجنونة"

سمعت شتائمها وأنا أوافقها في دخيلة نفسي. هذا بـالضبط رأيـي في نفسي.

قلت: " أنت محقة ومع ذلك سوف أذهب."

" أنت واعية ومدركة لكـل شـيء وتعرفـين مـا تفعلين ومـع ذلـك تقومين به. ما نفع وعيك؟ "

أنا أيضا أتساءل: "ربما الأمر أقوى مني."

إنه رأي مشترك، أعرف ذلك، إنها الحقيقة. قـالت فرانسـواز: "إذاً، لكي أمنعك مـن القيـام بحماقـات هـل يجـب علـيَّ أن أكـون أقـوى مـن الشيء الذي هو أقوى منك؟ "

"ربما !"

مـازالت فرانسـواز نصـف مخبـأة خلـفَ الحصـان، تنظـر إليَّ بتحـدٍ. اتسعت حدقتاها فجأة وقالت: " طيب، سوف أكـون الأقـوى. اسمعيـني جيداً. إذا ذهبت إلى هناك فسأقتل نفسي!"

أجبتها بنزق: أيعقل ألا تدركي أنك غالباً ما تتكلمين.كشخصية من شخصيات الرسوم المتحركة؟ أنت تعرفـين حـق المعرفـة أنـك لـن تقتلـي نفسك. لماذا تريدين أن تغـيري علاقـة كعلاقتنـا مـن صداقـة بسـيطة إلى ميدان جنوني.نحن صديقتـان ولكـن إذا كنـت تفهمـين الصداقـة بشـكل مغاير فمن الأفضل أن تحزمي حقائبك وتمضي."

جمّدتها عبارتي، بل جمّدتها لهجتي. لم تُبدِ حراكا. بقيت يدهـا علـى خطـم الحصـان وهـي تنظـر إليّ. أضفـت بجفـاء: " والآن سـوف أذهـب وعليك أن تأخذي الحصان الى الإسطبل؟"

أدرت لها ظهري وذهبت إلى المرآب خلف كومة التراب حيث تجثم سيارة صغيرة ودراجة نارية كبيرة. ترددت: "ماذا أختار؟ علـى الـدروب السيئة، الدراجة أفضل وبالمقابل، أن أري القرية دراجـتي وشـاباً يركـب خلفي مفرشخاً، أمر لعمري فيه الكثير من قلة الحذر."

صعدت إلى السيارة، أرجعتها ثم درت حول كومة التراب وسرت في الطريق الواسعة. هي ذي فرانسواز تمشي بهيئة سوداوية وهي تمسك بلجام الحصان الذي يتبعها. تجاوزتها وأنا أضحك ثم استلمت الطريق الرئيسة.

لم يلزمني أكثر من عدة دقائق كي أصل تحت القرية المعلقة وصخرتها الهائلة، على الطريق المحيطة أمام محطة الوقود حيث موعدنا. كان يقف هناك بجسمه الرياضي واناقته الخاصة. مكتوف اليدين على بعد خطوتين عني، زائغ العينين، جامداً. فتحت الباب وناديته: "هيه! ماذا تفعل؟ هيا، اصعد بسرعة، فيم تفكر؟" حزم أمره، مشى ببطء نحو السيارة. صعد وهو يقول بصوت خنقه اللوم: "لقد تأخرتي"

خطأ، إنها دقيقة. ولكنها طريقة يسلكها دائما ليمنح نفسه أهمية ما ليتغلب على عقدة العظمة المضخمة عنده.

لم أجبه. كنت أقود بيد واحدة. أخرجت باليد الثانية من علب القفازات شيئاً مغلفا بورق أبيض ومضموم بمطاطتين. العلبة ثقيلة جدا، ألقيتها على ركبته. تناولها بحركة متعطشة. نزع المطاط وفتح الورق الحريري الأبيض بأصابعه الغليظة، أصابع فلاح أخرق. إنه مسدس أسود، أملس وكبير وأخمصه طويل وضخم. قلت: "يبدو أن عياره خاص. تعبت حتى وجدته، ثم إنه غالٍ، لو كنت أعرف ذلك لما وعدتك به، ماذا تنوي أن تفعل به؟"

أعاد صر العلبة ثم زلق المسدس في جيب سترته المخملية وقال بصوته الرنان: " هذا ينفعني دائما " .

" أرجوك! ما أنت إلا سوقي، لص صغير، ساطٍ على الفيلات غير المسكونة.. قل لي ما يمكن أن تفعله بهذا السلاح."

احتج لأنه لا يملك الأعذار: "ها قد عدنا من جديد. كالعادة. انت تبحثين عن إذلالي."

" الحقيقة الصرفة هي ما أقول. تجرأ وقل لي إن لم تكن لص دجاج صغير!"

" إذا كان هذا رأيك بي فلماذا تأتين معي؟"

" لأن ذلك يسرني".

" ولم يسرك؟"

" أوه، أيها الغبي، لأنه يسرني وحسب. إحك لي ما حدث أمسِ مساءً."

"ذهبت واوغوستو إلى فيلا الأمريكيين. لم نجد شيئا تقريباً. أوغوستو أخذ سرجاً قديماً وأنا رزمة من علب السجائر."

"غبيان أنتما. لقد سبق وقلت لك ألا تذهبا إلى فيلا الأمريكيين. كان يجب أن تذهبا إلى فيلا أولئك المنتفخين، ما اسمهم؟ أولئك الذين يملكون الفيلا المجاورة للأمريكيين. هناك ستجدون أشياء كثيرة.غبيان. هذا أنتما."

"ولكن لماذا تكرهين أولئك الناس كثيرا وتسمينهم منتفخين؟ ماذا فعلوا لك؟"

" ها، ها، تسألني ماذا فعلوا لي؟"

إنه غبي وبليد محدود العقل، يحمل على كتفيه قرونا من التخلف. ولكن ربما لهذا السبب بالتحديد أحس بنفسي منجذبة نحوه. هذه هي طريقنا. انعطفت فجأة في المنعطف فارتمى عليّ. تقدمت فأخذت الأغصان الجانبية تصفع جانبي سيارتي. كم بقينا داخل الروضة؟ ساعة تقريبا. عندما خرجنا، أحسست كعادتي، بكره عظيم لنفسي، كره حتى الموت وتحاشيت أن أنظر إليه وأنا أقود السيارة. وصلنا إلى الطريق الرئيسة فحاول أن يمد يده ليداعب خدي بخجل. اعترضت مباشرة وصرخت:

" أنزل رجلك! "

"ما بكِ؟ "

" بي، إني أشعر بالخجل منك. اتفهم؟"

" ها أنت تعودين إلى التلفظ بكلمات تهينني."

" أترى؟ لقد وصلنا إلى المنعطف. القرية على بعد كيلومتر واحد. إنزل"

"لكني..."

"إنزل وإلا فأنا من سيذهب الى القرية وأسلمك إلى الشرطة وسوف أكفيهم عناء القبض عليك في بيتك."

فَعَل التهديد فعله. نزل وهو مستمر في التمتمة بأني أفعل ما أفعل خصيصا لإهانته.

درت نصف دورة ثم عدت مسرعة إلى الفيلا. خطر ببالي فجأة أن تكون فرانسواز قد حاولت حقا الإنتحار، فعقليتها عقلية شخصية من شخوص الرسوم المتحركة. كيف أعرف ما يحدث. لا شيء من هذا. دخلت إلى غرفتها فوجدتها ممدة على السرير ويداها متشابكتان تحت رأسها. جلست على سريرها ثم قلت: "بالمناسبة، يبدو لي إنه كان مَن الواجب عليك أن تنتحري اليس كذلك؟"

بدلا من أن تجيبني، أمسكت بيدي فقلت عبارتي بخبث: " أنزلي رجلك!" أنزلت يدها وهي تحدقني بنظرة ثاقبة بعينيها الرماديتين المريضتين. ردت بهدوء: " لقد التقينا في جنيف. أتذكرين؟ كنت تتنزهين وحيدة على شاطئ البحيرة. توقفت واستندت إلى الحاجز ونظرتِ إلى الإوز. كان الأوز الأبيض يسبح في جماعات. إوزة واحدة كانت سوداء. لذا اقتربت منكِ وقلت لك بصوت خافت: " أنت كهذه الإوزة السوداء، فأنتِ أيضا وحيدة."

إنها رومانسية لدرجة لا تطاق، رومانسية الروايات المصورة. لم أجبها. رفعت عيني آليا نحو النافذة فأحسست بنفسي فجأة يرفعني شيء

حقيقي وواقعي وسط كثير من الزيف. أخيراً هطل المطر غزيراً، عنيفاً، أبيض يسيل على الزجاج في هذه الساعة المظلمة من هذه الغسق الخريفي.

ساحة التحليل النفسي*

لن أقول لكم أين أسكن وسترون لماذا. مع ذلك يمكنني أن أدلكم على الحي. عليَّ أن أفعل ذلك وإلا غابت عنكم تفصيلات هامة من قصتي لن تفهموها.

إذاً، انا أسكن في حي (م. ع. ر.[1]) في الجزء الأكبر اتساعاً وخلواً من السكان . البناء يطل على ساحة واسعة مدهونة بالقار الأملس وحيدة. في الـ (م. ع. ر) الشوارع والساحات لها أسماء موحية بشكل خاص: شارع الأدب، شارع الفن، شارع الإنسانية، شارع النحت، شارع الحضارة الرومانية، ساحة الشعر... ولنفترض أني أسكن في ساحة التحليل النفسي. أحسنت إذ قلت (لنفترض)، فمن المستبعد أن توجد ساحة بهذا الإسم. إن الـ (م. ع. ر) هي في الواقع حي بني في عهد الفاشية. ونعرف أن الفاشية المقموعة والقامعة لم تكن تحب التحليل النفسي، فقد أحسست مع ذلك بالسعادة بالسكن في ساحة تحمل هذا الإسم لأني، أنا

** PIZZA DELLA PSICANALISI

[1] – (م. ع. ر): المعرض العام الروماني. باستخدام هذا الرمز كان الرومان يحددون حيا من مدينتهم مبنياً تحت حكم الفاشية ليستخدموه كمركز لمظاهرات كبرى.

شخصيا، محللة نفسية أستقبل المرضى في ساعات محددة كما هو مذكور على اللوحة النحاسية المعلقة على بابي.

تعلقت بالتحليل النفسي طيلة الفترة الطويلة السابقة من حياتي. كنت جالسة في مكتبي أمام آلتي الكاتبة والمسدس الذي ضغطتُ عليه بقوةَ بيدي لكي أترك عليه بصماتي، كان موضوعا بجانب منفضة مليئة بأعقاب السجائر. كنت أحاول أن أجد خاتمة للمقالة التي أكتبها منذ ما يقرب من عام. وهي تركّز على الفكرة التالية: لقد سلط سيغموند فرويد ضوء العقل على الحياة الداخلية وحيث يخيم الظلام بنى مشهداً مضاءً بقوة تمثل عليه المسرحية نفسها دائما والممثلون هم هم دائما: الهو والأنا والأنا الأعلى. ولكن الظلمات أكثف من أي وقت مضى حول هذا المشهد المضاء والمرئي من جوانبه كلها. كنت أكتب بصعوبة وبإصرار مستميت. أضرب على لمسات آلتي الكاتبة بإصبعين فقط ثم أنهض بين وقت وآخر وأذهب إلى النافذة، أنظر إلى الإسفلت، إلى الساحة وأرى الجثة مازالت موجودة هناك: منبطحة، اليدان ممدودتان إلى الأمام بعيداً عن الرأس.

ذهبت إلى النافذة عند الساعة الثانية والنصف والثالثة والثالثة والنصف والرابعة. بالتأكيد، لقد مرت سيارات من هناك، ومع أن الظلام مخيم، لم يتوقف أحد عندها لأنه تصور حادثاً مميتاً وخشي أن يتهم بفعله.

في الساعة الخامسة كانت الجثة ما تزال وسط الساحة و لم أكن قد أنهيت عملي، لذا ذهبت لأتمدد على السرير الصغير المخصص للمرضى عادة. أردت أن أنام لكني بدلاً من النوم، ها أنا أقوم آلياً باسترجاع قصة علاقتي مع جيا سنتو، الميت الممدد هناك وسط الساحة. لِمَ هذا الاسترجاع؟ ليس حنيناً بكل تأكيد وليس بسبب الرعب الذي يعتريني منه، بل لأني لم أفهم هذا القصة وأريد التوصل إلى فهمها.

في البدء كانت الإبتسامة الساخرة. استغربت هذه الإبتسامة المشعة والمشمئزة أبداً في وجه جيا سنتو الواسع والمسطح ذي العينين المائلتين قليلاً، استغربتها لأنها تبدو خارجة عن إرادته، نوعاً من الكلام الصامت، يحتفظ بها حتى في نومه. لماذا جذبتني هذه الإبتسامة؟ إننا ندخل الآن في اللامفهوم، ففي رأيي على الأقل لا يمكن لجيا سنتو أن ينتمي إلا لذلك النوع من الناس الذي يوصف بأنه نوع ساقط ويمكنني أن أقول أيضاً إنه نوع مجرم. ولكن في قصتي لا يمكنني أن أنتقل من جياسنتو إلى نفسي. كان جياسنتو ساقطاً وأنا، بشكل واعٍ أكثر منه غير مفهوم، أردت، بجعله عشيقي، أن أصبح ساقطة.

لا أرى جدوى من أن أروي كيف وأين التقيت بجيا سنتو. لنفترض أن اللقاء تم في بار وأنه تبعني بعد نظرة ذات مغزى وأنه صعد إلى سيارتي وجلس بجانبي في اللحظة التي كنت أدير فيها المحرك. بعد ذلك، غالباً ما كنت أراه في بيتي وحتى ساعة متأخرة من الليل. كان يبقى حتى ما بعد منتصف الليل في المطعم أو المقهى مع بعض أصحابه. من الأفضل التحدث عن علاقتي به.

كان يأتي إليَّ ولكن دوماً بعد أن يتصل هاتفيا ليُعلمني وكإجراء احترازي، كان يترك سيارته في شارع مجاور لشارعي ويجتاز الساحة الخاوية والقليلة الإضاءة ماشياً. ما إن ألمحه قادماً حتى أتأهب للضغط على الزر الذي يفتح باب المدخل الخارجي.

أي شعور ينتابني وأن ألمحه قادماً من الطرف الآخر للساحة، معروف تماماً بقامته القصيرة وكتفيه العريضين جداً وغير المتناسبين مع قامته؟ إنه اضطراب عميق يقطع أنفاسي وكراهية عظيمة لنفسي.

بعد ذلك تجري الأمور جرياً روتينياً وحتى طقسياً ولكن بنفاد صبر وتأجج للأحاسيس. كان جياسنتو سافلاً ومضجراً إلى درجة مرعبة، يقوم دائماً بالأفعال نفسها ويقول الكلام نفسه ويتشدق بمنطق مبتذل،

لقد غاضت ابتسامته الغريبة التي فتنتني في السابق. كان بوسعي أن أظن أني أمارس الحب مع أي برجوازي صغير عادي في كل شيء ولكن بدلاً من أن تطمئنني هذه العادية فإنها ترعبني.

عندما أراه يدخن ويثرثر وأرى نصفه الأعلى عاريا فوق الأغطية كنت أقول لنفسي أنه لكي يكون المرء سافلاً على شاكلته بهذا الهدوء وهذه الصلابة ومشابه إجمالاً لنقيضه يلزمه قرون وقرون من الإجرام، ولنقل إذا أحببتم إجراماً إيجابياً، أقصد إجراماً مرتبطاً ارتباطاً لا تفصم عراه بالقيم الأسرية الخالدة. آه، نعم، شيء آخر غير التحليل النفسي! أن أحلل جيا سنتو نفسياً هذه العينة الحية من انعدام الأخلاق القديمة، هذا يعني أن أحلل نفسياً الأزواج الممثلة على التوابيت الاتروسكية أو التماثيل ذات المؤخرات الضخمة في مالطا. وأنا، مع علمي الكامل، ألفيتني في مواجهة طباعه العاصية كمتوسطي، أحس بنفسي مجردة من السلاح كعامل يهاجم كتلة من الإسمنت المسلح بسكين صغيرة. كان يتكلم في أمور شتى ولكنه يفضل الكلام عن التجارة (فهو يملك مخزنين: الأول لبيع قطع تبديل السيارات يديره أخوه، والثاني للتريكو، تديره زوجته). يدخن سجائره الثلاث. لم يتجاوزها أبداً. أحيانا بشرب عصير الليمون. يبقى معي ساعتين ثم يغادرني إلى امرأة أخرى، نعم، لقد كان حامياً، هكذا يسمونه. اليس كذلك؟ لامرأة تدعي فاليريا، مومس (تعمل) لحسابه كل ليلة في الشوارع المحيطة. هل كانت فاليريا هي الوحيدة التي تعطيه المال الذي تكسبه (بعرق جبينها)؟ هل ثمة أخريات؟ لا أستطيع إجابتكم، فهو لم يحدثني إلا عن فاليريا هذه، ربما لأنها إذ تحاول أن تكون بالنسبة له شيئا آخر غير السلعة، فإنها تتمرد عليه أحياناً وبتمردها تسبب له كما يقول (متاعب) دائمة، ستضطره ذات يوم إلى تلقينها درساً. كنت أستمع إليه حائرة. حاولت أن أفهم لماذا أتابع رؤيته لكني كنت أصطدم دائما بعدم الفهم. عندما ينهي كلامه يسحق سيجارته، يرتدي ثيابه ثم يذهب إلى

فاليريا. أقف بالنافذة، أرقبه بتهافت وهو يجتاز الساحة الخاوية بخطى سريعة ثم آوي إلى فراشي دون أن أفكر في شيء، منهكة جسديا ومغرغة عقلياً.

في الايام الأخيرة أقود سيارتي وأسير بلا توقف حتى أصل إلى الشوارع المحيطة حيث أعلم أن فاليريا تعمل كل ليلة. عندما أصل إلى الشارع، اوقف سيارتي وأنظر إلى النساء الواقفات هناك بجانب نار صغيرة من القش تساعدهن على اتقاء برد الليل.

سرعان ما عرفتها، شقراء قصيرة، ترفع شعرها فوق جبهتها، زرقاء العينين، وجهها مربع وصدرها عارم وحوضها ضيق. توقفتُ وأشرت لها بيدي فأجابتني بحركة رافضة. لابد أنها ظننتني سحاقية، ألححت عليها إذ لفظت اسمها بوضوح فأتت إليَّ بجلال رغم قصر قامتها، ربما بسبب تسريحتها المرتفعة على شكل عرف فوق جبينها وأظن أنها كانت تحس باعتزاز ما بطلعتها.

وضعت رأسها على بابي لتسألني كيف عرفت اسمها. لم أكن أعرف كيف أجيبها فقد أتيت مدفوعة بقوة غامضة وغير مفهومة ككل شيء يمت بصلة لجيا سنتو.

نظرت إليَّ طويلاً بعينيها الغائرتين لكن الثاقبتين، ثم قالت أنها موافقة. حددت السعر واليوم ثم ذهبت. كان الموعد في يوم السبت التالي وهو يوم من أيام طمثها حيث لا تعمل خلالها.

في يوم الجمعة فتحتُ الصحيفة وفي صفحة شؤون روما المختلفة قرأت عنوانا صدمني ورأيت تحته صورت فاليريا فقرأت ما كتب عنها. لقد وُجدَت مقتولة في صندوق إحدى السيارات ومربوطة بحيث تبدو أنها خنقَت نفسها ببطء شديد. بحثت في صفحات أخرى عن تفاصيل أدق، لكني لم أجد أي خبر عن جياسنتو. تفترض الصحيفة أن فاليريا أرادت أن تتمرد فقُتِلَت بهذه الطريقة الفظيعة لتنزع كل أمل في نفس أية مومس أخرى تريد أن تحذو حذوها.

ما فعلته في ذلك الصباح قد يكون الشيء الأقل فهما في قصتي كلها غير المفهومة. واظبت على رؤية جياسنتو وفي الوقت نفسه جعلته يشرح لي آلية عمل المسدس الذي يحمله دائما في جيب سترته الداخلي. قلت له إني أخاف ليلاً في هذه الشوارع القفراء وأني أنوي طلب رخصة حمل سلاح. وافقني مباشرة دون أن يضيف. فمن الصحيح أن عصابات الأفاقين تهاجم النساء الوحيدات شائعة في هذه الأيام وأنا محقة في حمل السلاح وحتى أنه نوى أن يهديني مسدساً، لا، ليس مسدسه الذي كان ثقيلا عليّ، بل أهداني مسدسا خفيفا للسيدات بعد عدة أيام أتاني به وشرح لي كيفية استعماله وعبّأ بنفسه طلقة في السبطانة. هل منكم من يود أن يعرف إن كان جياسنتو قد علّق بشكل أو بآخر على نهاية فاليريا؟ نعم، لقد علق على تلك النهاية وقال بتشدق كعادته: "لقد كانت فتاة غريبة، وعليها أن تنتهي هذه النهاية."

ذات مساء، اتصل بي ليعلمني أنه قادم فوقفت خلف النافذة وأنا أضغط على مسدسي بقوة تشنجية. ها هو ظهر في الطرف الآخر للساحة ويتجه نحو بيتي بقامته القصيرة وكتفيه العريضين. دفعةً واحدة وفي مربع أسود من الظل معكوس على الأرض من بناء أسود ومطفأ الأنوار، على حين غرة خرجت سيارة غامقة اللون وانقضت عليه من الخلف. قفز جياسنتو في الهواء ويداه ممدودتان إلى الأمام كغطاس يلقي بنفسه عن ضفة نهر. مرت السيارة فوقه ثم ابتعدت وبقي جسنه على الأرض ملقى على بطنه جامداً ويداه على جانبي رأسه. السيارة وصلت الآن إلى آخر الساحة، ها هي تعود بسرعة جنونية وتمر فوق جثة جياسنتو من جديد ثم تنعطف في شارعٍ وتختفي. لم يدم ذلك أكثر من لحظة ولكنه انطبع في ذاكرتي إلى الابد بسبب عنفه المهووس كمشهد من فيلم رأيته وهو أيضاً لحظة واحدة عنيفة بفضل الستروبوسكوب.

انتهيت. ما إن وصلت إلى هذه النقطة من ذكرياتي حتى نظرت إلى الساعة الجدارية. كانت تشير إلى الثامنة والنصف. خرجت من سريري

وذهبت إلى النافذة. رفعت الستارة ببطء. بهرتني الشمس المزهوة وهي ترسل أشعتها من جوف ثغرة بين الغيوم الرمادية والمفتتة.

نظرت إلى الأسفل، إلى الساحة فرأيت السير العادي للموظفين ذاهبين إلى مكاتبهم. لم تكن الجثة موجودة. بدا لي-أن حدّاد الشرطة يحط تماما في المكان الذي انطلقت منه السيارة الغادرة. بصورة لاإرادية فكرت أنه برغم مساوئ المدنية كلها لدينا مع ذلك محاسن من الخدمات المدنية، فمهما كان الشيء الذي يعيق السير أو يؤذي النظام بأي شكل من الأشكال فإنه سرعان ما يُزال. أغلقت نوافذي وعدت إلى النوم.

اكتشاف الاكتشافات

كنت في الثامنة عشر من عمري، أجدُّ للتقدم لامتحان نهاية الدراسة. أنا ابنة لأحد صغار الموظفين، جديَّةٌ في تصرفاتي نتيجة التربية القاسية التي تلقيتها لدرجة أني كنت أجهل أني جميلة.

في الشارع، كان الرجال يستديرون لينظروا إليَّ. وكنت أستدير أيضاً، ولكن لا لأنظر إلى الرجال بل إلى أثواب النساء لأقارنها بأثوابي وأدرس ألوانها وأشكالها وطُرُزها لأحسب ثمنها. إن عدم قدرتي على ارتداء الملابس التي كنت أريدها ولَّد في نفسي ما يسمى هوس الكذب تجاه الثياب، فسترة كبيرة أو بنطال يصبحان رمزاً للحرية والسعادة كما هي رزقة السماء لسجين يراها من خلال قضبان سجنه.

ذات يوم، توقفت أمام أحد المحلات حيث كانت تعرض تنورة لفتت انتباهي منذ بعض الوقت وأعجبتني كثيراً. هذا رجل يتوقف بدوره خلفي ويأخذ بالنظر إليّ نظرة مفتونة، كما كنت أنظر إلى التنورة. إذاً رغبته فيَّ اختلطت برغبتي في التنورة وولّدت ما يسمى الدارة القصيرة

المنفجرة لوعي مفاجئ. فاجأت نفسي وأنا أفكر: هو يرغب فيَّ وأنا أرغب في التنورة. إذاً يجب ان يشتريني لكي أشتري التنورة.

ما كدت أفكر بهذا الأمر حتى اقترب الرجل مني وتكلم بصوت عادي جداً سمعه رجلان كانا موجودين هناك. قال: "إنها جميلة، إيه، هذه التنورة! إذا كانت تعجبك، تعالي، ادخلي وسأقدمها لك."

التفت فرأيت رجلاً شاباً، ليس كثير النحول، يبدو ماكراً ومنطلقاً فأجبته بلا تفكير تقريباً، لكن بصوت قوي بحيث يسمعنا الشخصان الواقفان : "موافقة، هيا بنا" ودخلنا إلى المحل. دللت البائعة إلى التنورة وهو، ما إن صُرَّت التنورة حتى ذهب إلى الصندوق ودفع كأب حادب أو زوج صالح.

لم يكن مكتبه بعيداً عن المحل. في المصعد، ثم في الشقة أخذ يتصرف كصديق قديم ساهم وغائب. وضعت الصرة التي تحوي التنورة على المكتب ثم بدأت اخلع ملابسي وهو لم يتوقف، أثناء هذا الوقت، عن الرواح والمجيء ليؤدي أشغاله بطريقة طبيعية لم أفهمها. ثم ألقى حراما اسكتلندياً على أريكة منجدة بجلد أسود ومارسنا الحب.

بعد الحب مباشرة رن الهاتف بإلحاح في الغرفة المجاورة فخرج عاريا تماما وبقيت وحيدة. فاجأني شعور بالفخر أكثر منه بالاستغراب، بالشك تقريبا، شعور شخص يكتشف اكتشافاً هاماً. لا تبتسموا ولا تسخروا مني، في الثامنة عشرة ودون أن أفكر بذلك سابقاً وفي حياة موزعة بين الدراسة والأسرة أكتشفت الشيء الأقدم والمعروف جداً الأكثر عادية في العالم: التعهر. نعم، لقد اكتشفت أني امتلك شيئاً لا يكلفني شيئاً وأن الرجال مستعدون لدفع ثمنه. واكتشفت خاصة أن العملية كلها... لنقل عملية (البيع والشراء) تتم على مستوى تعاقدي علني وأني استطيع أن أشارك فيها بكل هدوء. جلبت لي هذه الفكرة السرور. ارتديت بنطالي اللاصق فقط وأخذت أرقص وسط الغرفة وأغني "ليس إلا هذا؟ ليس إلا

هذا؟ أهذا صحيح؟ ليس إلا هذا؟". في هذه اللحظة عـاد (واهـبي التنـورة؟ واهبي نفسي؟ الاثنين في وقت واحد؟) بدا كثير الاستغراب لفرحـي الذي لم يرَ له مبررا فشرحت له أن الأمر يتعلق بانفجار مفاجئ للسعادة الجسمية فصدّق وبعد أن تعانقنا كصديقين قديمين، ذهبت.

لا تسألوا كيف نظمت حياتي بعد أول ولوج لي إلى أقـدم مهنـة في التاريخ. يكفيكم أن تعلموا أنه بطريقة أو بأخرى، سواء مباشرة كمـا في المرة الأولى أو بواسطة غير نزيهة، نجحت على الأقل، خلال عامين في أن أشتري شيئاً فشيئاً كل الفساتين وكل ما كنت أريده. لم أفعل ذلك إلا من أجل ثيابي. فيما عدا ذلك كنت أعيش حياتي نفسـها بـين الجامعـة حيـث كنت أجتهد بحماس وفـائدة وبـين البيـت حيـث كنـت أعيـش مـع أهلـي وإخوتي الثلاثة.

بالمناسبة، لم أقل لكم أني حظيت بشاب أحببته كثـيراً وكـان يحبـني كثيراً كان يدرس في كليتي نفسها. بالنسبة لثيابي، ما زلت أحصل عليهـا بالطريقة التي تعرفون، طبعا كنت سـأكف عـن التعهر لـو أن الموضـة لم تكن في تغير مستمر. حالياً، تتملكني الموضة بعمق كما لو أنـه مـن قبلـي كانت أجيال من النساء اللواتي أخذن على أنفسهن عهداً طيلة قرون بألا يرتدين إلا الأسمال على ظهورهن.

إن عبارة "ليس إلا هذا؟" فعلت فعلها خلال عامين كما قلـت. ذات يوم، وجدت نفسي حـاملاً دون قصـد. فقررنـا، خطيبي وأنـا، أن نقـرّب حفل الزواج الذي كنا قد فضلنا تأجيلـه حتـى يـأتي الموقـف المناسـب. في تلك الفترة بالذات ركزت اهتمامي على سـترة مـن الصـوف الطبيعـي لهـا جيبان كبيران وأزرار معدنية كنـت قـد رأيتهـا في أحـد المحلات في مركـز المدينة. إنها لباس كغيرها ولكن، كالعادة، مـا إن تبـين لي أنـي لا أستطيع شراءها حتى أصبحت رمزاً، أصبحت صنماً. أفكر فيها في النهـار وأحلـم فيها في الليل. وفجأة، ذات يوم خشيت إن أنا لم أشـتريها أن يولـد طفلـي

مع شهوة من الصوف الطبيعي على جزء ما من جسمه أو، ولِمَ لا، مع سترة كبيرة منطبعة مصغرة لكنها كاملة على أحد خديه. وبما أني لم أرَ حلاً آخر للحصول عليه قررت اللجوء إلى آخر مصدر، إلى التعهر.

بالطبع خطر ببالي أحد الحلول الذي يوصف بطيبة خاطر بأنه "أنيقة" بسبب غموضه ودقته. بررت لنفسي: سأكسب المال لشراء السترة "قبل الزواج". لكن السترة نفسها سوف أدشنها بعد "الزواج" خلال الرحلة التي سأقوم بها مع زوجي إلى الريف حيث وُلِد. فقط أقسمت لنفسي أني سأكف عن التعهر بعد الزواج. لم هذا القسم؟ في الواقع، ما من سبب محدد.

ربما لأني قلت لنفسي أني مع زوج وطفل وبيت أفتحه فإن هذا التلهف على الثياب سيخرج أخيرا من رأسي. بانتظار ذلك، بقي الحل الأنيق – وهذه السترة الصوفية هل ستجعلني أحنث بقسمي أم لا ؟

ذهبت مؤخرا إلى محل للصياغة لأشتري المحبسين الذين سنتبادلهما أنا وزوجي في الكنيسة. كان المحل ضيقا، ربما هو لأسرة. فيه امرأة عجوز وأخرى شابة من عمري تقريبا تشبهها كثيراً وقد تكون ابنتها.

كانت الصبية تُري إحدى الزبونات، بلا حماس بادٍ، طبقا من المخمل الأسود مليء بالخواتم المزينة بأحجار كريمة حقيقية. ياقوت أزرق، زمرد، ياقوت أحمر، ماس صقيل... طلبت إلى الأم أن تريني بعض الخواتم. بالانتظار أخذت أنظر إلى الطبق دونما اهتمام. عند ذلك قلت لنفسي أن أية حلية من هذه، حتى لو بيعت بخسارة ستكفيني للجواب دفعة واحدة عن سؤالي "الأنيق" وكذلك عن أسئلة كثيرة أخرى صغيرة من هذا القبيل. فجأة، نما لديَّ انطباع – محمس وغريب في آن واحد– يخرق حدود الجديد والمجهول الذي أحسست به منذ عامين عندما اكتشفت وبصورة غير منتظرة الاكتشاف المعروف عالميا والموغل في القدم: البغاء.

هذه المرة أيضا، اكتشفت اكتشافا قديما جداً ومعروفاً جداً ومشتركاً جداً وهو بالنسبة لي يمتلك طزاجة جدَّةٍ مطلقة: السرقة. كيف لم أفكر بها قبل الآن؟ أصحيح إذاً أن الأشياءَ المخبأة هي المرئية أكثر، أقصد تلك التي معنا، ولنقل أمام أنوفنا ؟

ذهبت الزبونة دون أن تشتري وشيَّعتْها الفتاة حتى الباب، في اللحظة نفسها أدارت لي الأم ظهرها لتفتح أحد الدروج. بسرعةٍ، خطفت الخاتم ذا الياقوت الأحمر الموجود على الطبق المخملي ووضعت مكانه خاتمي الصغير القليل القيمة الذي كنت قد خلعته من إصبعي لتجريب خاتم الزواج. أدخلته في إصبعي ثم لبست قفازي من جديد وقلت لم أجد ما أبحث عنه ثم خرجت، في الشارع، دخلت في باب العربات ونزعت الخاتم من إصبعي وزلقته بين بنطالي اللاصق وجسمي فانزلق بفعل ثقله وتوقف عند أسفل بطني، تماما في المكان الذي سيرى منه الطفل الوليد النور. كنت واثقة من نجاح ضربتي. أخذت أردد بيني وبين نفسي بعصبية واضحة: " أليس إلا هذا؟ ما هذا؟ أهذا صحيح؟ ما هذا؟ " في تلك اللحظة أمسكوا بمرفقي. التفت فرأيت العجوز الصائغة وشعرها الأشيب يطير في الهواء، بدت مجنونة وهي تصيح: "الخاتم، لقد نقصني خاتم، الخاتم ذو الفص الياقوتي الأحمر."

دون أن أبدي قلقي عدت معها إلى المحل. دخلت واحتججت بصوت مرتفع. أريتها أصبعي كلها بدون خاتم وقلبت حقيبةٍ يديٍ على الطاولة. بقيت الأم خانقة لاهثة تردد: "أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً. أعرف فقط أن الخاتم الموجود هنا أنت التي نزعته من إصبعك لتجربي خاتم الزواج. لاحظت ذلك لأن خاتمك رخيص الثمن فيه تقليد للحجر الكريم لم أره من قبل قلت لكِ أني لاحظت ذلك والآن خاتمك في مكان خاتمي."

لم تقل ابنتها شيئاً، كانت تنظر إليَّ بثبات بطريقةٍ غريبة، تريد أن تخترقني، لكن بصمت. وفي النهاية قررت أن تقدم اقتراحاً: "أريد أن أقول

شيئاً للسنيورة ولكن على إنفراد. تعالي معي". وأشارت بيدها فتبعتها إلى المحل الخلفي.

أغلقت الباب وقالت بلطف: "لقد رأيتك تأخذين الخاتم بعد أن شيَّعتُ زبونتي. التفت فرأيتك و لم أخبر أمي. على كل حال لم أخبرها، هي التي لاحظت."

سألتها باستغراب: "لماذا تقولين على أية حال...؟ "

ابتسمت أولاً ثم قالت: "لنفترض أني لا أتفاهم جيداً مع أمي. لنفترض أني لست البائعة إلا مقيدة ومرغمة. لنفترض أخيراً أني اكتشفت أن ما يهم في الحياة ليس الخواتم ولا الياقوت."

" أنتِ اكتشفتِ ذلك؟ "

" نعم ما الغريب في الأمر؟ في عمرنا يمكن أن نصادف اكتشافات، أليس كذلك؟ والآن أعيدي لي الخاتم. اسحبيه من المكان الذي وضعته فيه واعيديه لي وسوف أختلق لك قصة أرويها لأمي."

لم أُصرِ. مررت يدي إلى داخل اللاصق والتقطت الخاتم تحت بطني المتوتر قليلاً بسبب الحمل. أخذَته الفتاة ثم فتحت الباب وقامت بحركة انحناء كما لتلتقط شيئاً على الأرض ثم صاحت:"أوه، انظري يا أمي، ها هو ذا."

استفدت من فرحة الأم لأنسحب خارجا.

في الشارع. نما لدي من جديد انطباع بأني قمت باكتشاف ولكن هذه المرة يعني اكتشاف عملية الاكتشافات. قمت باكتشاف، والفتاة في المحل قامت باكتشاف آخر مختلف تمام الإختلاف، ولكن أيضا لشيء معروف وقديم ومشترك، ولكن كم من الاكتشافات في يوم واحد ؟

الفهرس

تصميم الغلاف : طالب الداوود